

## كتاب (حضارة مصر القديمة)

كتبه الدكتور عبدالعزيز صالح والكتاب أربعة أجزاء سيقتر حدينا عن الجزء الأول الذى صدر منه والذى يستهدف كما جاء فى تصديره (الخطوط العريضة لمصرنا القديمة بأسمائها ولغاتنا وتكوين شعبها وروابطنا القومية بها، ونشأة الحضارة فيها منذ عمر الإنسان أرضها، ثم تكوين صورة عامة مترابطة لتطور حياتها السياسية والإدارية والعقائدية والاقتصادية والفنية والأدبية، وعلاقتها الخارجية حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد).

والكتاب ليس من الكتب العلمية فحسب ولكنه من الكتب العزيزة فى المكتبة المصرية فهو حديث حفى موصول عن مصر ينحو للمصرى سماعه وترديده وتعمقه لأنه يرى نفسه فيه.. إنه وجوده النفيس ولعل من توافق الأشياء أننى صحبت هذا الكتاب فى سعى إلى المعبد العظيم (أبوسمبل) فكان مكملا للرحلة متمما للمعنى فكنت أرى قومي المصريين الأوائل فى آثارهم ثم أسمعهم فى هذا الكتاب.

والكتاب عشرة فصول يستهل الفصل الأول بالحديث عن مصر أسمائها الأولى فيقول الدكتور عبدالعزيز صالح إن أجدادنا كان يطلقون على أرضها كيمه (وتاكيمه) بمعنى السوداء والسمراء والخمرية رمزا منهم إلى لون تربتها وزهوا بدسامة غريتها وكثافة زرعها واعتبروا طابع السمرة أو السوداء فيها ميزة تفرق بينها وبين اصفرار الصحراء المحيطة بها والتي اطلقوا عليها اسم (دشرة) بمعنى الحمراء، إشارة منهم الى شدة جذبها.

وكان المصريون القدماء يسمون مصر ايضا «تاوى» بمعنى الأرضين أرض الصعيد (تاشمعو) وأرض الوجه البحرى (تامحو) وكان المصريون يحرسون على تضمين اسم (تاوى) القاب فراعنتهم طوال عصورهم القديمة تأكيدا لالتزام شمل الوجهين فى طاعتهم وفى ظل وحدة سياسية وحضارية متكاملة.

ومن أسماء مصر القديمة النابعة من النيل اسم (ايدبوى) أى الضفتين تحية شاكرة للنهر العظيم كما كانوا يسمونه واهب الخيرات.

يقول الدكتور عبدالعزيز صالح (ولم يكتف الأجداد بالتعبير عن بلدهم بأوصافها الطبيعية، وإنما أضفى أدباؤهم عليها نعوتا شعرية ممتعة، فوصفوها بأنها «أيرة رع» أي عين الشمس أو عين رب الشمس وسموها «وجاة» بمعنى السليمة، و (جاة نثرو) أي عين الأرباب السليمة وسموها (اترتى) بمعنى ذات المحرايين، وسموها «باقاة» بمعنى الزيتونة). لما كانت خضراء دائما زهراء ناضرة.

إن مصر ذات الصفتين وذات المحرايين وذات الأرضين وهي عين رب الأرباب.. وعين كل مصرى.

وبعد هذا العرض الشيق لإسم مصر وقف الدكتور عبدالعزيز صالح وقفة طويلة عند اسمين هما أهم الأسماء حتى لا يقارن بأمرهما أسماء أخرى إذ هما اللذان عرفهما العالم الخارجى لمصر ورددتهما نصوصه وهما: اسم (مصر).. و مترادفاته، واسم (ايجوبتوس) و مترادفاته.

ومضى الدكتور الباحث يستشهد بالنصوص الأثرية والفارسية والبابلية واليمينية والعبرية والأرامية السورانية.. وأفصح من هؤلاء جميعا، القرآن الكريم الذى ردد اسم مصر ترديدا لم يحظ به اسم آخر أو بلد آخر. كما وقف عند دلالات الأسماء واحتمالات مصادرها.

ثم انتقل الى الحديث عن مصر القديمة بين جيرانها فى الجنس واللغة وكيف نسب المصريون أنفسهم الى بلدهم فقالوا إنهم (كيميتيو) أى أهل كيمة، وردد أدباؤهم أن شعبهم هو شعب الشمس، والشعب النبيل، وشعب السماء، وشعب الإله، وادعوا أنهم صور من ربهم الأكبر (تشكلوا من لحمه، وخلقوا من عينه، ونزلوا من دموعه).

ثم ذكر العوامل الكثيرة المتشابهة التى ربطت بين مصر وجيرانها ثقافيا ولغويا واقتصاديا وسياسيا ووديا.

ومن أمتع ما ورد فى الكتاب المقارنة التى عقدها الدكتور الباحث بين المفردات المصرية والمفردات السامية بوصف اللغة المصرية تضمنت بفعل العوامل المشار إليها (مفردات سامية غير قليلة عاشت حتى عصور اللغة السامية الكلاسيكية وعاصرت مفردات المعاجم، واستمر بعضها حتى عصرنا الحاضر، مع تغييرات طفيفة لا تكاد تحس فى حروفها وحركاتها، وهى تغييرات لم توجد بينها وبين المفردات المصرية فحسب، بل وجدت أمثالها كذلك بين مفردات أهل الشام وأهل العراق وأهل شبه الجزيرة العربية، ووجدت بين مفردات فروعهم الداخلية الصغيرة أيضا).

وضرب الدكتور عبدالعزيز صالح الأمثلة ففى التعبير عن أعضاء جسم الإنسان، عبر المصريون فى نصوص الدولة القديمة، عن العين بلفظ «عين» وعبروا عن الرجل بلفظ رد، واستخدم العرب هذا اللفظ فقالوا ما أدرى أين ردى ورفعت أخرى. كما جاء فى تاج العروس.

وفى أسماء السوائل والنباتات والأشياء والمعنويات والصفات، عبر المصريون فى نصوص الدولة القديمة عن الماء بلفظ مو، وعبروا عن القمح بلفظه الحالى.

ويقرر الدكتور الباحث أن (نصوص الدولة الوسطى قد أضافت ثروة سامية جديدة من الأسماء والصفات والأفعال). وأن نصوص الدولة الحديثة لم تقصر فى هذا المضمار.

وعقد الدكتور الباحث مقارنة مماثلة بين اللغة المصرية القديمة وبين مفردات جيرانها الأفريقيين لاسيما الليبيين والنوبيين وأتى فى هذا المجال بأنهار من مفردات الأسماء والأفعال.

ولم يفته أن يدفع عن الشخصية المصرية ما قد يتبادر إلى الذهن من شبهة المسابرة أو الإنقياد فقرر أن التقارب بين اللغة المصرية وبين جاراتها فى الشرق والغرب والجنوب لم يؤد الى ضياع خصوصيتها اللفظية اطلاقا (ولم تكن المفردات التى أسلفناها غير قلة قليلة من كثرة كثيرة من مفردات إبتدعها المصريون بوحى بيتهم وبما يناسب مطالب حضارتهم ويتفق مع أذواقهم وتخيلاتهم، فهم وإن شاركوا إخوانهم الساميين فى التعبير عن العين بلفظ عين على سبيل المثال، إلا إنهم إبتدعوا للعين ستة أسماء أخرى فضلا عن عدد من الصفات، وإذا شاركوهم فى التعبير عن الأذن بكلمة اذن الا انهم ابتدعوا لها خمسة اسماء سواها لم يشاركوهم فيها جيرانهم. وإذا شاركوهم فى التعبير عن الطفولة بلفظ طفل (طفل). إلا أنهم عبروا عنها من ناحيتهم بما لا يقل عن عشرين لفظة أخرى. وظل ذلك شأنهم فى التعبير عن كل ما أحاط بهم وعاشوا فيه ووصفوه، فعبروا عن السماء بنحو أربعين إسما وصفة، وعبروا عن العرش بنحو ثمانية عشر إسما وصفة، وعبروا عن حركات المشى فى الذهاب والإياب بنحو أربعين فعلا، وعبروا عن حالات الفرح والإستمتاع بنحو أربعين فعلا أيضا.

وعلى أية حال فليست المفردات هى السبيل الوحيد لتصوير مكانة اللغة المصرية القديمة بين جاراتها، ولكن ظلت قواعد نحوها وصرفها أكثر دلالة منها فى تصوير الصلات بين مصر وجاراتها من ناحية، وتصوير شخصية مصر اللغوية المتميزة من ناحية أخرى.

وهنا تتواكب فى الكتاب الأدلة العلمية فما يكاد يفرغ منها الدكتور الباحث حتى يقرر من جديد أن اللغة المصرية قد إحتفظت (بتشبيهاها البيانية التى خدمت وجوه الحضارة الفكرية والمادية التى طرقتها دون جيرانها أو أكثر من جيرانها).

وهذا البحث اللغوى ساق الى بحث لفظة شهيرة ذات طابع بين ركام الألفاظ.. وأعنى لفظ (فرعون) (وما ترتب عليه من تسمية المصريين أحيانا بالفراعنة واغراق بعضنا فى استخدام هذه التسمية للمفاخرة، واغراق بعض آخر فى استخدامها للقدح والتجريح).

وهنا ناقش اللفظ مناقشة علمية لغوية انتهى منها الى أن اللفظ فى جوهره (لقب) يعنى البيت العالى أو البيت العظيم ثم شفعه المصريون بعبارات دعاء للملك الذى تتركز فى قصره السلطات العليا لدولتهم. (وهكذا لم تكن تسمية فرعون وفراعنة تدل على جنس بعينه، ولم تكن تعنى كفاية معينة، أو نقيصه معينة، ويترتب على ذلك أنه اذا كانت أغلب مفاخر مصر القديمة قد تمت باسم الفراعنة، فليس الفراعنة بمعنى الملوك هم أصحاب الفضل وحدهم فى إقامتها ولكنهم المصريون وفيهم الفراعنة..، وإذا كان القرآن الكريم من ناحية أخرى قد وصف الفرعون الذى عاصر موسى.. بالطغيان والجبروت وتجاوز عن ذكر اسمه، فعلىنا أن نؤمن بكل ما وصفه به وقاله فيه، ولكن ليس من المنطق إطلاقاً أن تعمم صفات هذا الفرعون على كل الفراعنة المصريين، فالحكام فى كل مجتمع وزمان وأيا كانت ألقابهم، يظهر منهم الصالح والطالح، والعاذل والظالم، والبارز والحامل، وهكذا كان شأن الحكام المصريين وغير المصريين.

والقيمة الكبرى لهذا الكتاب، أنه ناقش مناقشة علمية أفكاراً ثابتة مكنت لها اعتبارات شتى لم تتحرر فى كل حال وقائع التاريخ.

ولم يبال المؤلف أن يواجه ما تواضع عليه الجمهور من اعتقادات بل قرر فى ثقة العالم وإيمانه بالحقيقة والحقيقة وحدها، الوقائع فى تحديد ووضوح سافر لا يعرف الموارية أو القابلية لشتى التفسيرات والتخرجات.

قرر الدكتور عبدالعزيز صالح فى غير مجمله أو إلتواء أن (لبانة المجتمع المصرى الحالى هو لبانة المجتمع المصرى القديم من حيث الدم.. والهئية والقامة ولون البشرة مع كل ما فيها من فوارق ضمنية فى الخلقة بين فرد وآخر، وأسرة وأخرى، وفوارق إقليمية بين البحاروة والصعايدة وأشباه

النوبيين فضلا عن فوارق الطابع بين أهل القرى وأهل المدن. وإذا كانت قد تعاقبت على أرضنا عهود قديمة أحلتها فيها فرس وإغريق ورومان وبيزنطيون ومن لف لفهم وعمل في خدمتهم فالذى لا شك فيه هو أن الإختلاف الجنسى بين اولئك الدخلاء وبين المصريين كان محمدا للغاية وأردف هذا بذكر الأسباب.

ثم ذكر نزول العرب مصر فى بداية ظهور الإسلام فأبرز حقيقة واقعة (وهى أن أهل البداوة منهم ظلوا قليلى التزاوج مع المزارعين.. المصريين، على نحو كانوا قليلى الإختلاط بأصحاب الحرف وأهل الحضرة.. المستقرين فى شبه الجزيرة العربية نفسها، واقتصر تأثيرهم الجنسى وتأثرهم الجنسى على من شاركوهم معاشهم من البدو المصريين دون أهل الحواضر وأهل الريف).

وهنا يقرر كما قرر من قبل الدكتور حسين فوزى فى كتابه (سندباد مصرى) وكما يقرر كل عالم بالتاريخ يقدر قيمة الكلمة ويعلى الحقيقة فوق ما عداها، أن مصر نجت بل سمت وارتفعت على (انقسام الشخصية حين آمنت بالمسيحية وحين آمنت بالإسلام، وظل كل من نزلوها أعدادا مضافة إلى لبانتها دون أن يكونوا عوامل تغيير فى قوميتها).

فمصر قد تكلمت العربية بعد قرون من الفتح العربى لأنها فى الوقت نفسه لغة القرآن الكريم ولكن لم تجب اللغة المصرية القديمة تماما (وظلت بقية من مفردات لغتنا القديمة قائمة حية فى مجتمعنا المعاصر، تصل أهلها بماضيهم، وتجرى على ألسنتهم فى أسماء قراهم ومدنهم وأسماء شهورهم الزراعية وتتخلل أحاديثهم فى شئون حياتهم اليومية).

وهنا تضيق الصفحات بما أورده الدكتور عبدالعزيز صالح من أسماء وصفات وأفعال وصيغ نردها فى لغة حياتنا اليومية مما يكفى بعضه ليروع القارئ والمصرى والآخرين ايضا، وقد رد هذا كله إلى أصوله المصرية القديمة ومن الطريف أنه (مازال آثار قواعد اللغة القديمة باقية فى بعض اسالينا الدارجة مع إختلاف الألفاظ، مثل: قام ككتب، .. وحايكتب، ورايح يكتب، وهو يكتب، وعمال يكتب.. وكلها صيغ غير معروفة فى العربية الفصحى.. وعبارات أخرى وألفاظ كثيرة تشيع فى الريف وفى الصعيد بخاصة لاتزال تتطلب جهدا طويلا فى جمعها وتفسيرها وردها الى أصولها).

وليس هذا من عمل الإيمان (بالمصرية) أو تأكيدا (الذاتية) أو الولاء لهذا الوادى المقدس أو الوفاء لهذا الشعب النبيل فإن جوستاف لوبون يقول فى كتاب (المدنيات الأولى): (غزت مصر

شعوب مختلفة، ولكن البلاد استطاعت برغم ذلك أن تهضم هؤلاء الفاتحين جميعاً، محفظة بفنونها ولغتها، وعقائدها، فلم يتح لأولئك الفاتحين أن يؤثروا فيها.. اللهم إلا العرب الذين فرضوا عليها دينهم ولغتهم وفنوناً أجنبية. ومع ذلك، ظلت مصر رغم هذا الإخضاع فرعونية (الدم) ويشايح لوبون، لودفج، وبترى ويشايهم جميعاً منق الواع وحقائق التاريخ.

ثم تحدث الكتاب عن (مراحل التاريخ الحضارى لمصر القديمة) وعن (دهور ما قبل التاريخ). ويرى الدكتور عبدالعزيز صالح لنا، قصة البحر الأبيض مع مصر وقصتها مع البحر الأحمر أما قصتها الكبيرة فكانت مع النيل قبل ظهور الإنسان على أرض مصر وفى بداية ظهوره ولكنه (بدأ أهم مراحلها أثراً فى حضارة أهله منذ تفتحت له آفاق النحت والنقل من رواسب الجنوب فى أواخر الدهر الحجري القديم الأوسط فحمل الغرين الدسم منها، وغطى به الحصباء والرمال الخشنة القديمة فى واديه ودلتاه شيئاً فشيئاً وردم به مناقع واسعة صادفته فى الصعيد وجعلها مهياً للعمران والسكنى).

وأكد الكتاب حقيقة كبرى تغيب دائماً فى طيات عبارة هيرودوت المشهورة (مصر هبة النيل). إن نهرنا العظيم صاحب حضارتنا بفنونها وعلومها وآدابها وأخلاقها وقيمها ولكن ذلك كله لا ينفى كما يقول الدكتور عبدالعزيز صالح (أن مصر الزراعية المتحضرة كانت ثمرة من ثمرات الجهد المصرى الأصيل، كما كانت هبة النيل فى آن واحد).

وفى حديثه عن الدين لخص جوهر العقيدة عند قدماء المصريين بقوله: (إن تقديس المصريين للقوى الربانية الخفية التى تبينوها فى دنياهم وفى بيئتهم هو الذى وجههم إلى إظهار الود نحو مخلوقاتها الظاهرة التى توهموا فيها آيات اربابهم وتخيلوا فيها صفات تتفق مع تصوراتهم عن أربابهم).

ومن الخطوط البارزة فى الكتاب خط بناء الهرم هل بنى الهرم بأيد (مسخرة موثقة)؟ إن المسخر الموثق يفعل ما يؤمر به ولكن عمله مزاوله فحسب لا إبداع فيها ولا روح والباحث العالم هرمان يونكر يؤكد (أن روح الرضا والرغبة فى الإبداع والإتقان كانت غالبية على من تكفلوا ببنائه وان عوامل التسخير والإجبار قد تستطيع أن تبني الهرم الأكبر، وما هو أعظم من الهرم الأكبر ولكنها لم تكن تستطيع وحدها أن تبلغ به إلى ما بلغه من الإتقان بحال من الأحوال).

كما يؤكد الكسندر شارف (أن تقديس المصريين للملوكهم ورغبتهم في عبادتهم بعد موتهم هي التي دفعتهم إلى التفاني في بناء أهرامهم ومعابدها). بل يذهب إلى ابعده من هذا فيؤكد ثانية (أن حرص افراد الطبقات الكادحة على أن يدفنوا حول هرم خوفو بعد اربعة قرون من وفاته، يؤكد بقاء ذكراه الطيبة بينهم ويبعد عنه سمة العتاة المستبدين).

إن التاريخ الحديث يذكر أن الفنان مايكل انجلو مبدع القبة العظيمة بكنيسة القديس بطرس كان يرفض بعاطفته الدينية أن يتقاضى أجرا عن أعماله بها فما بالناس المصريين القدماء منذ ألوف السنين الذين كانوا يرون ملوكهم آلهة وأبناء الشمس ومالكي مصائرهم لا في الدنيا وحدها بل في الآخرة أيضا.

ويشير الدكتور عبدالعزيز صالح في مناقشته بناء الهرم، إلى ظروف مصر الطبيعية واعتمادها قديما في حياتها الزراعية على دورة زراعية واحدة، مما ينجم عنه تعطل عمال الزراعة بضعة شهور من كل عام كانت فرصة لهم.. وللحكومة وعلى رأسها فرعون أن يعملوا في المنشآت والمشاريع العامة ليأمنوا غائلة البطالة حين تترد حركة البناء والتعمير في الوطن يؤكد هذا أو يرجحه على الأقل ما رواه المؤرخون الإغريقيون الذين زاروا مصر القديمة من أن العمل في الهرم كان يستأنف أو يشتد عادة في مواسم الفيضان ومارووه من أن بناء الهرم الأكبر وتوابعه إستغرق نحو عشرين عاما ولم يتم في وقت قصير.

يقول الدكتور عبدالعزيز صالح (ليس من آثار أو نصوص باقية من عهد خوفو بالذات تكشف عن طريقة معاملة رجاله لعماله، ولكن يمكن أن يستشهد من طريق غير مباشر بما أسلفناه عن تخصيص شؤون الغلال في مجموعة زوسر بسقارة لتموين العمال وقت بناء الهرم. وتموين الكهنة بعد بنائه وما سوف نذكره عن تخصيص مساكن للعمال بجوار هرم خفرع لإيوائهم عوضا عن تركهم يبيتون في العراء. وقد تخلفت نصوص لأثرياء من عصر الأسرة الرابعة نفسها وأثرياء عهود مختلفة أخرى من الدولة القديمة تعمد أصحابها أن يصوروا الظروف التي شيدوا فيها مقابرهم والأساليب التي عاملوا بها من إستأجروهم فيها، فقال رجل من عصر الأسرة الرابعة (كل صانع عمل في مقبرتي أرضيته) وردد آخرون في نصوصهم قولهم (أنفقت على قبري هذا من متاعى الحلال، ولم يحدث إطلاقا أن أغتصبت متاع شخص ما). وقال آخرون في نصوصهم: (أرضيت كل الصناع الذين أتموا لى عملا فى هذا القبر بالخبز والشراب وكل شىء طيب) وقال

بعض من تولوا رياضة الإتياع والصناع: (لم أضرب إنسانا وقع تحت يدي، ولم أستبعد أحدا في العمل) وليس من شك في أن مثل هذه الأقوال لا تخلوا من مبالغات يستقبل الشخص بها حياتها الأخرى ولكن ليس من شك كذلك في أنها لا تخلو من إشارات صدق).

ويختتم الدكتور عبدالعزيز صالح مناقشته للمسألة بأن الفراعنة إذا كانوا قد وجهوا جانبا كبيرا من موارد أرضهم إلى صالح المعابد والمقابر والأهرام، إبتغاء خلود الذكر أو تكريما للأرياب وإظهارا للثقوى أو إستمالة لأهل الدين أو حتى التقليد والتفاخر، فإن غيرهم من الحكام لهم من الآفات ما لا يشفع فيه مجلى فن أو استهداف أو قربى الآلهة فكان (من آفة حكام بلاد النهرين الأقدمين حب البطن وسفك الدماء والنهم إلى الجبروت، وكان من أمر الحكام الرومان الإقدمين مثل أمرهم، وكان من آفة حكام العصور الوسطى بذل جانب كبير من موارد دولهم وبيوت أموالها في سبيل بناء القصور وحية الإستمتاع ومدائح الشعراء).

\*\*\*

لقد تحدث الكتاب عن (فجر التاريخ) في مصر وما أمتع حديثه عن مرمدة بنى سلامه وحضارات حلوان والفيوم ودير تاسا ثم حديثه بعدها عن البدارى والمعادى. وحديثه عن الفنون بألوانها وقصتها مع الإنسان المصرى على ضفاف النيل.

إن كتاب (حضارة مصر القديمة) بهذا كله ومن أجل هذا كله خليق بالقراءة المتعمقة، حقيق بالدرس المتأمل كفاء ما بذله صاحبه من جهد البحث والإطلاع والتقييم والعرض والتحليل.

إن هذا الكتاب لمصر بما فيه من غذاء للشخصية المصرية والعزة المصرية.. والعزيمة المصرية والطاقة المصرية طاقة العمل والأمل والطموح والقدرة والانتصار.

إن هذا الكتاب لمصر بما فيه من فنونها وعلومها وعقائدها وكفاحها ونجاحها ومقاومتها وصلابتها وإصرارها وكبريائها وعنادها وآلامها وآمالها.

إن هذا الكتاب لمصر بما ردد من أسمها وأعلى من قيمها وصفى لها من حب يتودد، ورقرق لها من غناء بتعبد وسكب عليها من حنان يتملى ورفع إليها من أناشيد تغنى أنه فى محرابها صلاة تعمق الإيمان بها «بذات الأرضين.. بذات المحرابين» بذات الضفتين.. بمصر الخالدة.

## كتاب (تاريخ البشرية)

هذا الكتاب من ستة مجلدات كبيرة كل منها فى جزئين أعدته اللجنة الدولية لتاريخ التطور العلمى والشقافى للإنسانية التى تتألف من مائة وخمسين من أبرز ما فى العالم من مفكرين ومؤرخين وعلماء وإقتصاديين وفنانين بإشراف منظمة اليونسكو.

ترجمة ومراجعة الأساتذة:

عثمان نويه. د. راشد البراوى. محمد على أبو دره

أخرجته الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

جاء فى صدر الكتاب أن جوليان هكسلى كتب عام ١٩٤٦ حين كان سكرتيرا تنفيذيا للجنة التحضيرية لانشاء منظمة اليونسكو (أن على الإنسانية اليوم واجبا أساسيا هو أن تتعاون فى صياغة تاريخ لتطور الروح الإنسانية والإنجازات الثقافية ومثل هذا العمل يتطلب تعاونا تاما بين نقاد الفن والفنانين ومؤرخى الفن وعلماء الأجناس والإخصائيين فى الدراسات المقارنة للأديان وعلماء الآثار والأدباء والشعراء وأساتذة الأدب كما يتطلب من المؤرخين أن يسهموا فيه بقدر كبير.

وفى هذا العمل يجب أن يحتل التطور الشقافى فى الشرق حيزا مساويا لما يحتله التعاون الشقافى فى الغرب. وهيئة اليونسكو هى القادرة على إنجاز هذا العمل وذلك بفضل تعدد إهتماماتها وقدراتها على دعوة الباحثين من شتى الأقطار للتعاون فى إنجاز هذا المشروع العظيم..)

أقول: هل نحى هذه الدعوة الآن والبشرية تعاني من القلق والحرب الساخنة والباردة والاعتراب والاحتراب؟

الذى أقدمه من هذا الكتاب الموسوعى هو المجلد السادس منه لعدة أسباب:

١ - إنه يعنى بالقرن العشرين والتطورات العلمية والثقافية فيه والتغيرات الاجتماعية تغيرات كبرى فى المفاهيم والأفكار.

فالموضوع أمس بالإنسان المعاصر على الساحة الكبيرة أى العالم، الذى تشكل جزءا حساسا

منه.

٢ - إنه يفرد فصلا كبيرا حافلا عن: الدين فى عملية تأريخ للأديان ونشاطاتها فى وجه الاتجاهات الزمنية التى سادت الحياة الحديثة وارتباط الدين بالشعور القومى فقامت باكستان بإنشاء دولة حديثة على أساس التعاليم الإسلامية، ونص الدستور المصرى عام ١٩٥٦ على أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة، وفى أندونيسيا حزبان إسلاميان من الأحزاب السياسية الأربع الكبرى فيها، مقترنة بروح القومية الإفريقية وقدمت الأحزاب الديمقراطية المسيحية كثيرا من القادة فى حركة إعادة بناء أوربا بعد الحرب العالمية الثانية.

يقول الكتاب (فى عالم مزقته حربان عالميتان فى جيل واحد، وصدعت بنيانه عشر سنوات من الإنهيار الإقتصادى وملاً أرجاءه أناس اقتتلوا من ديارهم عن طريق الهجرة الاختيارية أو الجبرية، وغامت على حياتهم الخشية من احتمالات استخدام القنابل الذرية والهيدروجينية وامتهنت كرامتهم إجراءات الدول البوليسية وهزتهم الفوضى الاجتماعية التى تلت التغيير الاجتماعى - فى هذه الظروف بدا أن الدين هو الذى يقدم لكثير من الناس طرق الأمان وسبيل الإخلاص من شرور العصر ووسط ماساد الحياة الحديثة من فقد الذاتية والاضطراب والصراع قدم الدين إحساسا بالذاتية وإساساً لتضامن المجتمعات. ومن أوربا وأمريكا على نحو خاص حيث انتشرت اللامبالاة الدينية إلى اقصى حد، ظهر ان بعث الحياة فى الدين يعكس رغبة فى إعادة كشف جوهر داخلى للتماسك كان يبدو أنه قد فقد ولإعادة الحياة إلى القيم والمفاهيم التى كانت لها الغلبة فى الثقافة الغربية يوما).

ويذكرنى هذا بالمؤرخ العالمى ارنولد توينبى فهو يرى الحرب والطبقات عاملين يتهددان الإنسان الحديث وحضارته.. وعنده ان الحرب والطبقات داء المدنيات جميعا. وعنده المخرج من هذا الداء أن نقيم البناء الدنيوى الخارجى على أسس من الدين. وحين يعدد أهداف المدنية الغربية ويجعلها ثلاثة:

السياسة.. والاقتصاد.. والدين الذى يراه أهمها جميعا، ليس من شك فى أن الهدف الدينى من بين هذه الأهداف الثلاثة أهمها جميعا فى النهاية. فالسياسة كما يقول لا تحقق النجاة بالسيادة المطلقة، فى الدول الإقليمية، أو بحكم الإستبداد الذى لا يلين والذى تتولاه حكومة عالمية مركزية.

وهي لا تتحقق في الإقتصاد بالمشروعات الفردية غير المقيدة أو بالإشترابية غير المخففة لقد أفلست حضارة الغرب بكل التكنولوجيا أن تحقق لإنسانه السعادة لأنها اعتمدت على الذهن وحده فأجذبت الروح من طول الإهمال.. إن ازدياد المعرفة كما يقول «رادا كريشنان حكيم الهند» دون أن يقابله نمو في تاريخ البشرية لأبجدي. لقد سيطرنا على قوى الطبيعة وتحكمنا في البحار وغرونا الفضاء. ولقد زدنا من الإنتاج وحاربنا المرض ونظمنا التجارة وجعلنا الإنسان سيدا على بيئته، ولكن سيد الأرض لا يستطيع على الرغم من هذا إن يعيش مطمئنا فهو يختبئ في باطن الأرض تارة، ويلبس الأقنعة يتقى بها الغارات تارة أخرى. أن مخاوف الحروب تطارده فهو يعيش في حالة من الشك دائمة. ولا يمكن أن تكون هذه الحضارة المهتدة بالحرب، والمدفوعة بقوة الآلة هي آخر ما يصل إليه الإنسان من كفاحه.

حتى «اينشتين» عالم الطبيعة العالمي يعلن أن الغرب كسب الحرب ولكنه لم يكسب السلام، لقد وعد ميثاق الأطلنطي العالم بالتححرر من الخوف ولكن الخوف إزداد كثيرا منذ إنتهاء الحرب.. وقد وعد العالم التححرر من الغزو غير أن المجاعة تهدد اليوم أجزاء كبيرة من العالم في حين أن أجزاء أخرى تمرح في رعد العيش وعد بالحرية والعدالة بيد أننا شاهدنا ولانزال نشاهد، المنظر الأليم، منظر جيوش «التحرير» تطلق النيران على شعوب تطالب بإستقلالها وبالمساواة الإجتماعية وتؤيد في تلك الشعوب ذاتها، بقوة السلاح الأحزاب والأشخاص الذين يصلحون لخدمة أغراض أصحاب المنفعة كما أن مشكلات الحدود والتنازع على السلطان، وإن تكن من الأمور البائدة، لاتزال تغطي على المطالب الأساسية مطالب الرفاهية والعدالة).

حدد هذا المجلد معالم القرن العشرين وتمثل في:

الصراع بين فكرة القومية وفكرة وحدة البشر

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أعلنته الأمم المتحدة ووضع أراضى الوصاية تحت الإشراف الدولي ومع أنه لا يستطيع أحد أن يدعى أن كل الشعوب قد وصلت إلى مستوى تكافؤ الفرص، فإن الحقيقة التي تلفت النظر في القرن العشرين إذا قورن بما سبقه من عصور التاريخ، هي الإلتزام بمبدأ المساواة على نطاق عالمي.

أقول هذه المحاولة في القرن العشرين تردنا إلى القرن السابع الهجرى كيف رسخ الاسلام معنى المساواة في نفوس أهله وأصله وأصل مفهومها تأصيلا انعكس على الحكم فالإسلام في

الحكم يدين بنظرية الأمة الواحدة ولا أحاج هنا بالتقسيم: العرب والموالي فلست أتكلم عن أفراد تحكمهم مصالحهم أو تفكيرهم المحدود ولكنى أتكلم عن تفكير الإسلام وروح الإسلام وجوهر الإسلام.

لقد انعكست المساواة فيه على نفوس المؤمنين الصادقين فكان عمر رضى الله عنه يقول عن «بلال» سيدنا ولكن هذا، عمر الذى أعطى الدرر للمتسابق المصرى وقال له مشيرا إلى ابن عمرو بن العاص: اضرب ابن الأكرمين. والتفت إلى وإليه على مصر عمرو بن العاص وقال قولته الباقية: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟).

المساواة فى الإسلام انعكست على المسجد الإسلامى فالذى يصل مبكرا يقف فى الصف الأول ولو كان خفيرا والذى يصل آخرا يقف فى الصف الأخير ولو كان أميرا.

انعكست المساواة فى الإسلام على العمارة الإسلامية التى مالت إلى الخط الأفقى الذى يعين على المساواة حين يشير الخط الرأسى إلى التفاضل وهذا موضوع كبير.

يقول الكتاب عن الولاء الدينى للإسلام إنه كان (أقوى تعبير عن الإسلام ومشاكله الكبرى فى القرن العشرين فى المجال السياسى.. فالإحياء الإسلامى كان جزءا لا يتجزأ من حركة الثورة السياسية والإقتصادية بين الشعوب الإسلامية. وقدم الإسلام مصدرا روحيا للقومية ثقافيا وسياسيا فمنح الجهاد ضد السيطرة الغربية بعض خصائص الحرب المقدسة.

وفى الإسلام من حيث هو مرشد للسلوك السياسى نجد أن إصراره التام على المساواة بين المؤمنين يتمشى مع الاتجاهات الديمقراطية الحديثة).

ومن ظاهرات القرن العشرين فى الكتاب

تقوض فكرة التسبيح بالحضارة الأوربية. أى كسر حدة الغرور الحضارى فى أوروبا.

ومن الظاهرات، ظفر النقابية والمساواة الجماعية بالإعتراف الكامل

ومن الظاهرات إعلان ميثاق الأطلنطى فى اغسطس سنة ١٩٤١ الحريات الأربع منها

١ - حرية (التحرر من الحاجة)

٢ - حرية (التحرر من الخوف)

ومن الظاهرات.. توسيع نطاق مسئولية المجتمع الذي قابله ضيق نطاق مسئولية الأسرة.  
فإن توزيع الوحدات الإقتصادية على الأفراد والنظر إلى كل فرد على أنه وحدة من وحدات المجتمع، قد قوضا أركان البناء الهرمي داخل الأسرة.  
تكلم الكتاب عن النظم الإقتصادية فى فصل كامل.. وفى فصل آخر عن النظم الإجتماعية وفى فصل رابع عن النظم السياسية وفى فصل خامس عن النظم العسكرية وفى فصل سادس عن الدين كما أسلفت.  
وفى هذا الفصل وقفه عند اقتناع الشيخ محمد عبده بأنه لا يوجد تعارض بين علم الغرب والفكر الإسلامى هذا فى مصر..

وفى الهند كان السيد أحمد خان (١٨١٧-١٨٩٨) يعمل على أساس مفاده أن جوهر الإسلام يتسق مع الطبيعة وقوانين العلم كما أن المشرع الهندى سيد أمير على فى كتابه البالغ التأثير «روح الإسلام سنة ١٨٩١» يستشهد بالقرآن الكريم لتأييد الأخلاقيات الإجتماعية المعاصرة فى امور منها الرق، وتعدد الزوجات، والطلاق بالإكراه، وأكد دور الإسلام كقوة تقدمية متحضرة.

#### الفصل السابع من الكتاب

هذا المجلد عن (التعليم) ونظمه بإعتباره من أعظم الأمور التى تشغل مجتمعات القرن العشرين فى كل أنحاء العالم.

أما الفصل الثامن والأخير من هذا المجلد الذى تبلغ صفحاته ٤٨٦ من القطع الكبير، فهو (استخدام وقت الفراغ).

لاتزال كلمة باقية تعطى الحجم الحقيقى لهذا الكتاب..

أن اللجنة الدولية التى قامت بتأليف هذا الكتاب أنفقت ما يزيد على خمسة عشر عاما فى متابعة كل ما كتب أو يكتب من أبحاث منهجية ووثائق.. كما تم إجراء مواجهات مباشرة بين المؤلفين لم يسبق لها مثل من قبل وما كان ليستطيع تحقيقها غير منظمة عالمية مثل اليونسكو.

لقد قررت اللجنة الخطة العامة للكتاب ثم عهدت إلى المختصين البارزين بعمل مشرفين على الكتاب كل فيما يخصه. وكان من الواجب على هؤلاء المشرفين أو المديرين أن يخضعوا لقاعدة صارمة هي أن يضعوا آراءهم وجها لوجه أمام آراء مؤرخي العالم أجمع وهكذا تحققت للكتاب موضوعية لم يسبق لها مثيل من قبل.

وقبل طبع أى فصل من الكتاب كان يعرض للمراجعة المنهجية ويوزع على كل اللجان القومية لليونسكو وكل مستشارى التحرير الذين اختارهم مؤتمر الخبراء التابع للجنة الدولية.

وكان لابد مع ذلك من عدم الأخذ بالكثير من التعليقات التى قدمها الإخصائيون السوفييت والأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون والإيطاليون والألمان واليابانيون والمكسيكيون لأسباب تتعلق بتفسيرات تاريخية أو بأيدولوجيات لم تقبلها هيئة المشرفين.

\*\*\*

وبعد ما أحوجنا إلى قراءة هذا الكتاب فى إطلالة على ما عند الآخرين تعمق بها عندنا طرائق التفكير وأنماط السلوك وأساليب التناول والأحكام.

## مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية

ألف هذا الكتاب الأستاذ محمد عبدالله عنان صاحب موسوعة تاريخ الأندلس، من بدايته إلى نهايته، في سبعة مجلدات كبيرة.

وكتاب (مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية) ثلاث كتب:

الأول: الخطط في تاريخ مصر

الثاني: في تاريخ مصر الإسلامية

الثالث: صور من الأدب المصري

سجل المؤلف لمصر ريادتها في التأريخ وإبتداعها تاريخ الخطط والآثار (وهو في رأينا فن مستقل بذاته من فنون التاريخ، كان لمؤرخي مصر فضل ابتكاره ثم فضل تقدمه وازدهاره حتى غدت آثاره تكون وحدها ثبنا حافلا في تراثنا التاريخي).

لقد كتب بعد مصر كثيرون، عن الأمصار الإسلامية (ولكن تناول هذه الأمصار لم يكن بنفس الاستيعاب والتخصص اللذين تناول بهما المؤرخون المصريون «الخطط والآثار» المصرية وتاريخ عاصمة الإسلام في مصر، وتطورات أحوالها ومجتمعاتها في مختلف العصور فليس بين الأمصار الإسلامية العظيمة من حظيت كمصر القاهرة بمجموعة حافلة من الآثار والسير متصلة متعاقبة).

وهنا أريد أن أفسر هذا. لقد سجلت مصر تاريخها وإنجازاتها في معبد سبتي الأول صفوفا صفوفا.. قطوفا قطوفا فلما دخلت في الإسلام، أعطت مصر للإسلام فن الخطط بسابقتها في التسجيل، وحبها للحفظ والحفاظ.

إستهلت مصر كتابة الخطط بابن عبدالحكم وبلغت بها قمة من خلال المقرئى. وبعد مصر كتب الكاتبون: البلاذرى واليعقوبى والطبرى والإصطخرى والمقدسى وأبو بكر الخطيب.

يقول الأستاذ عبدالله عنان، إنهم جميعا ماعدا أبو بكر الخطيب (ليسوا مؤرخين إحصائيين للخطط والآثار بالمعنى الذى يطلق على المؤرخين المصريين، ولا تجمع بين آثارهم وحدة التعاقب

والإتصال التي تجمع بين آثار الخطط المصرية ومن ثم كان تاريخ الخطط والآثار، فنا في الأدب التاريخي، مستقلا بذاته Sui generis وكان فنا مصرية، إبتدعه المؤرخون المصريون، وانفردوا بالتخصص والبراعة في عرضه واستيعابه).

ثم استأنفت مصر القومية في كتابة الخطط فوفقت توفيقا من خلال على باشا مبارك صاحب الخطط التوفيقية.

يدور الفصل الأول عن (عاصمة الإسلام في مصر) ومنه يعرف القارىء كيف أعطت مصر للإسلام الأمصار وما يتصل بها من معاهد وآثار وعطاؤها ليس للماضى ولكنه ساير الزمن. وصار شاخصا ماثلا بل لعل مصر في هذا ظاهرة إسلامية فقد إحتفظت بمعظم آثارها الإسلامية حتى اتصلت خطى التاريخ الإسلامى على ترابها وهو ما لا نظير له في البلاد الإسلامية الأخرى. يؤكد هذا الأثرى الإسلامى حسن عبدالوهاب فى بحثه الذى ألقاه فى مؤتمر الآثار فى البلاد العربية المنعقد فى دمشق سنة ١٩٤٧ كما يؤكد الأستاذ محمد عبدالله عنان فى هذا الكتاب إذ يقول (القاهرة وحدها، من بين الأمصار الإسلامية العظيمة. مازالت تحتفظ بمعظم مواقعها وآثارها القديمة وبينما فقدت معظم الحواضر الإسلامية المشرقية أثوابها الزاهية التى كانت لها فى العصور الوسطى، وفقدت معظم مميزاتها وخواصها القديمة، وبينما أضحت قرطبة واشبيلية وغرناطة منذ بعيد مدنا.. لم تبق فيها من آثار الإسلام سوى صروح قليلة وأطلال دارسة، إذا بالقاهرة وحدها تجمع إلى عظمتها فى العصور الوسطى وإلى آثارها الإسلامية الباهرة، كل مميزات الأمصار الغربية العظيمة، وإذا الكثير من خططها ومعالمها القديمة لايزال حيا قوى الأثر، تؤكد وتعيّن آثارها (الباقية) ص ١١.

أقول أعطت مصر للإسلام، القاهرة وهى مدينة تجمع مدنا فهى الفسطاط والعسكر والقطائع وهى القاهرة.. وهى قبل هذا (منف) بوراناتها الحضارية التى جعلت القاهرة أصيلة عريقة ذات عطر خاص أو غدت كما يقول المؤلف (منار الإسلام ومعقله وعروس أمصاره).

ويتفنن المقريزى فى وصف (القطائع) التى عمرها أحمد بن طولون كما يتفنن «ابن حوقل» فى وصف الفسطاط لتحسب الصفات والميزات للقاهرة عاصمة العواصم وأم المدائن وأخت التاريخ وبنّت الحضارة والعمارة والفنون والعلوم وحين انقضت الدولة الطولونية، بعث الخليفة المكتفى بالله جنده إلى مصر لإستعادة سلطة الخلافة فيها فدخلوها بقيادة محمد بن سليمان فى

أوائل سنة ٢٩٢ هـ - ٩٠٤ م (واقتموا القطائع، وأضرموا فيها النار، وخرّبوا قصورها ومعاهدها وحدائقها).

وهنا أقول إنسانة ومصرية: لماذا تخرب المدن العامرة الزاهرة؟ لماذا تخريب المعاهد والقصور والحدائق؟ لماذا الهمجية؟

حين تبعت مصر الآخرين لها في فترات من تاريخها، أضافت إليهم بنت وعمرت وعلمت ولا تزال آثارها شاخصة إلى اليوم شاهدة بما أدت وأوفت.

\*\*\*

سحرت القاهرة الرحالة «ناصرى خسرو» (وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهى العناية والترف، حتى ليتمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة، وليس من الحجر أو الأحجار العادية. والمنازل كلها منعزلة. بحيث أن الأشجار القائمة في أحدها لا تصل أغصانها إلى المنزل الآخر).

ومن بعده، وقع «ابن زولاق» في بحران من الحماسة السكرى ومثله «القضاعي» و«ابن عبدالظاهر» و«المقریزی» و«المسبحی» وعبداللطيف البغدادي، وياقوت الحموي، وابن جبیر الأندلسي ثم الرحالة ابن بطوطة الذي سبّح في وصفها ثم سبّح بيهاتها ثم ظلت حقيقتها أكبر من الكلمات.

ثم.. دهاها في حاضرها ما دهاها من تغيير وعشوائية وتعدييات على حرمانها جعلت مآساتها الحضارية أكبر من الكلمات.. أيضا.

ويظن ابن زولاق و«المسبحی» و«القضاعي» و«المقریزی» في وصف بذخ الفاطميين والقصور التي حليت أبهاؤها بالذهب والجواهر.. والحدائق والبساتين والميادين والمساجد والمعاهد مما جادت به عليهم مصر الزاخرة وحاضرتها القاهرة.. ولكن أحدا من هؤلاء المؤرخين لم يقل إن الذي فعل هذا هو الشعب المصرى الصاحب الحقيقى للجواهر واللآلى، التي تلالأت، قبلا، في مآقيه دموعا.. وعلى جبينه حبات عرق.

ولا يزال الكتاب يسمون الأشياء بغير أسمائها فيظفر حكامه على مر العصور بكل شيء تاركين له، القيراط الخامس والعشرين.. في الجنة التي أطب رجال الدين، إلا قلة، في نعيمها كأنهم يمتنون الشعب المصرى بحراء الصابرين.

مرة أخرى أعود إلى ماضى القاهرة من باب العزاء عن الحاضر.. لقد وصف المقريزى وديج وأفاض فى أمراء القاهرة فى وقته (وتحوى مصر القاهرة من الجوامع والمساجد، والربط والمدارس والزوايا، والدور العظيمة والمساكن الجليلية، والمناظر البهيجة، والقصور الشامخة، والبساتين النظرة، والحمامات الفاخرة، والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع، والأسواق المملوءة مما تشتبهى الأنفس، والخانات المشحونة بالواردين، والفنادق الكاظمة بالسكان، والترب التى تحكى القصور، مما لا يمكن حصره ولا يعرف ما هو قدره) ج ١، ص ٣٦١.

\*\*\*

ويتوج الوصف والوصافين، ابن خلدون فيهتف هتفة لم تزل بعد ستة قرون داوية الصدى:  
(٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م):

(رأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بأفاقه، وتضىء الدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطيء بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيه العلل والنهل سيحه، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجة، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم).

هذه الجميلة الساحرة الآسرة كم قاست من (الشدة العظمى) فى عصر المستنصر الفاطمى.. كم عانت من صيبانيات «شاور» و «ضرغام» و حرق شاور للمدينة و حرائق الإنتقام فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون والأوبئة المروعة سنة ١٢٠١، ١٢٩٦، ١٣٤٨ الذى بلغ من شدة الأول أن سموه (الفناء الكبير) والذى هز وجدان الغرباء فوصفه عبداللطيف البغدادى وصفا مؤثرا.

كم كابدت الجميلة من التحاريق عام ١٤٠٣، ١٤٤٩، ١٤٦٦، ثم وباء ١٥١٧ أى دخول الترك الذى غطاه ابن إياس فى فصول تقطر أسى ثم الفرنسيين ١٧٩٨ ثم الإنجليز ١٨٨٢ وفى كل عصر إلى يومنا هذا «انكشارية» يتخطفون الناس والأرزاق ويفريهم نوم النواطير فيبتسم الثعالب وما تفنى العناقيد.

ولكنهم جميعا زائلون وتبقى حقيقة كبرى هى مصر الخالدة.

يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان عن عصر محمد على (عادت يد الإنشاء والتعمير تعمل من جديد في العاصمة القديمة.. عادت القاهرة العصور الوسطى، سيرتها في زعامة مدن الإسلام.. وتمتاز على هذه الحواضر جميعا بأنها تمثل أروع عصور التاريخ جنبا إلى جنب) استغرقتني القاهرة.

نأتى إلى الفصل الثانى وقد عقده المؤلف عن مؤرخى الخطط من ابن عبدالحكم إلى المقرئى، ومن هؤلاء محمد بن يوسف الكندى، وابن زولاق الليثى المصرى، والأمير مختار عز الملك المسبحى والقضاعى والعينى وأبو المحاسن ابن تغرى بردى، والسخاوى، وابن إياس، وابن أبو السرور البكرى والجبرئى.

ويقف المؤلف وقفة خاصة عند صاحب الخطط التوفيقية على باشا مبارك:

(ولم يشهد تاريخ الخطط منذ المقرئى، مجهودا فى الطرافة والإفاضة كمجهود على باشا مبارك، بل لقد جاءت «الخطط التوفيقية» من بعض الوجوه أتم وأوفى من خط المقرئى.. فتناول بعد القاهرة، جميع المدن والقرى المصرية بإفاضة وترجم كثيرا من أعيانها فى مختلف العصور.

وكان تمكنه من الهندسة والجغرافيا والتخطيط (التبوغرافيا) يمده بكفاية خاصة للقيام بهذه المهمة.. فما من أثر أو مسجد أو دار أو خطة أو شارع أو ميدان، فى عصر القاهرة القديمة إلا حقق موقعه وأبعاده فى القاهرة المعاصرة، بوضوح يثير الإعجاب).

أقف بدورى عند الخطط التوفيقية ودالاتها عندى..

عشرون جزءا فى خمس مجلدات كبيرة فيها من التحقيق، والشرح، والمقابلة، والمضاهاة، والبحث، والمتابعة، همة يقضى وجهه موصول، وجلد حديد، وصبر عنيد، وعتيد. إنها بطولة روحية.

ظهرت أجزاءها تباعا خلال سنتى ١٣٠٥ و ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨-١٨٨٩م)

معنى هذا أنه بدأها فى العقد التاسع من القرن التاسع عشر أى منذ دهم الإحتلال البريطانى مصر وكأن عمله هذا أو هو كذلك، رد مصر على الإحتلال إنها تحيا.. أنها لا تموت، أنها تلملم ذاتها وتحققها.. تحققها علميا وتحققها فى الحياة بالعمل والعلم والتأريخ والكتابة. وانتهى الإحتلال.. راح. انداح.. وبقيت فى البواقي الخوالد.

الخطط التوفيقية.. الخطط المصرية

إنها شخصية مصر

\*\*\*

انتهى الكتاب الأول.

أما الكتاب الثاني فيستهل الفصل الأول عن (مصر في عهد عمر ابن الخطاب).

وقد جاء في هذا الفصل أن (قرى مصر أحصيت من أجل الجزية فوجدت أكثر من عشرة آلاف قرية أعنى ضعف ما تحوى اليوم.

وبلغ من وجبت عليه الجزية السنوية من القبط ستة آلاف نفس وعلى رواية أخرى ثمانية آلاف). ج ١. ص ٨١.

أقول هذا ردا على من يقولون إن المصريين المسلمين - وهم الملايين - هم أولئك الذين أرادوا أن يتخففوا من الجزية.

ويدحض هذا ويفنده أن الأقباط الذين وجبت عليهم الجزية كانوا بضعة آلاف فقط إذن الكتلة الكبيرة أو القاعدة الكبيرة من الشعب هي التي دخلت في الإسلام بدون إعتبار الجزية.

على أن الجزية «ديناران» على رب الأسرة فقط ومقابل حماية الثغور أى الإعفاء من الجندية بينما الإسلام يفرض الزكاة ثم زكاة المال ثم حماية الثغور وكلها أعباء تفوق كثيرا «الدينارين» إذن أسلم ملايين المصريون لأسباب بعيدة كل البعد عن عامل الجزية.. وقد فصلت هذا في كتابي (شخصية مصر) وإيرادها هنا ياعد بيني وبين الكتاب الذى نحن بصدده اليوم.

وعقد المؤلف الفصل الثانى من الكتاب عن (صور من استقلال القضاء).

والفصل الثالث عن الأميرة المصرية قطر الندى وكانت حياتها على قصرها، إذ رحلت فى الثانية والعشرين من عمرها.. مأساة خليقة بالإعتبار. الأعوام الثمانية الأخيرة من عمرها، ملحمة وهى لاتزال إلى اليوم ماثلة فى الأدب الشعبى

وينتقل المؤلف فيما بين الفصل الرابع، والفصل الثامن من الدولة الطولونية إلى الإخشيدية، إلى الفاطمية وما لحق بها من أساطير بدأت بالمعز نفسه فلم يك غريبا أن يعقد الفصل الثامن عن (عصر الخفاء فى مصر الإسلامية).

(كان النصف الأخير من القرن العاشر الميلادي، عصر الخفاء في مصر الإسلامية، كما كان القرن الثامن عشر عصر الخفاء في أوروبا وكما امتاز عصر الخفاء الحديث بالتعلق بالمجهول والخارق، والتطلع إلى مدارك الغيب، وذيوع الدعوات الإلحادية، وقيام الجمعيات السرية المختلفة، فكذلك يمتاز عصر الخفاء في مصر الإسلامية بنزعة إلى استكشاف الغيب، وإحياء عصر الخوارق، وقيام الفرق الدينية السرية، وبث الدعوات الإلحادية المغرقة. ويرجع هذا التشابه بين العصرين إلى ظاهرة تاريخية معروفة، هي أن عصور الخفاء في جميع مراحل التاريخ، تلتقى جميعاً برغم اختلاف الظروف والأحوال في نقطة واحدة هي التعلق بالخارق والمجهول، وهي قبلة يتجه إليها ذهن البشرى في جميع العصور والمجتمعات) ج ٢. ص ١٢١.

وكانت الذروة كما يقول المؤلف في أواخر عصر الحاكم حيث إتخذت دعوة الخفاء صورة إلحادية.

(ثم كان إختفاء الحاكم على ذلك النحو الخفى المدهش الذى انتهى إلينا وانعدام كل أثر يدل على مصيره، أو يلقي ضوءاً على ظروف إختفائه أو مصرعه.. فكان ذلك عاملاً جديداً فى إذكاء شعف الخفاء والتطلع إلى مدارك الغيب، وإذكاء الدعوات السرية المغرقة فى نفس الوقت. حتى لقد زعم بعض الغلاة أن الحاكم قد رفع إلى السماء). ص ١٢٤.

ويقرر المؤلف بين ظاهرة الخفاء وبين ذيوع (الماسونية) فى جميع أنحاء أوروبا واستقائها من الدعوات اليهودية التى كانت (ذات أثر كبير فى توجيه حركات الخفاء المشرقية).

وفى آخر هذا الفصل يعقد المؤلف مقارنة بين الشرق والغرب والفرق بين عصر الخفاء هنا وهناك (فقد كانت دعوة الخفاء فى المشرق يغلب عليها العنصر الروحى. وكانت تميل إلى حشد المؤمنين، وتكوين العقائد والمبادئ قبل كل شىء.. ولكنها كانت فى الغرب يغلب عليها العنصر المادى وكانت أكثر ميلاً إلى إجتناء الثمرات المادية).

إنه الغرب.

وعقد المؤلف الفصل العاشر عن (مصر فى فاتحة القرن الثالث عشر كما يصورها عبداللطيف البغدادي)

ولما كان عبداللطيف البغدادي قد عاش فى مصر أعواماً طويلة فقد عمر وصفه لها بالتصوير والملاحظة والطرافة والصدق حتى فى مواضع التقدر.

فإذا تكلم عن النيل وعن منابعه ومصبه وزيادته ونقصانه فإنه يتكلم كما يقول المؤلف بأسلوب الجغرافي العالم.

وإذا تكلم عن الآثار الفرعونية فإنه يرسم لها صورة من أقوى الصور وأبداعها.

ويسجل المؤلف قضية خطيرة وهي أن الآثار المصرية القديمة، سواء فرعونية أو يونانية أو رومانية، كانت أيام الفتح الإسلامي أضعاف ما كانت عليه يوم شهدها العلامة البغدادي).

ويعلل هذا بأن الفاتحين الذين بهرتهم آثار مصر الخالدة كما بهرتهم حضارتها، لم يحسنوا رعاية هذا التراث المجيد الذي لم تخلفه حضارة أخرى من حضارات الأرض جميعا.

فالبعض بفهم خاطيء للدين، إعتبرها وثنية وغاب عنه أن مصر أول من آمن بالتوحيد وقال بالضمير والشواب والعقاب والبعث والجنة والنار والعالم الآخر.

والبعض الآخر استولت عليه فكرة إستخراج الأموال والكنوز وهؤلاء كانوا يسمون مصر (أرض الدفائن)

والأمثلة كثيرة مثيرة تحدث عنها طويلا المقریزی بما يدمى القلب.

وفي الفصل الحادي عشر تحدث المؤلف عن الحرب (الصليبية الرابعة في مذكرات فيل هاردوان) هذه المذكرات وإن لم تقل الحقائق كلها إلا أن الحوادث التي ترويها تكشف عن بعض الأسباب الحقيقية يقول المؤلف: (إن حرص الكنيسة في أوروبا- على سيادتها الزمنية، وعملها على تمكين سيادتها باسم الدين بين أمراء النصرانية، وتحويل أولئك الأمراء عن مناهضتها ومقاومة عدوانها على سلطانهم، ثم إضطرام أولئك الأمراء بإحراز السلطان والثورة في بلاد المشرق، كانت هي العوامل الأولى والغالبة في تحريك هذه الحملات البربرية على الإسلام، وإن إنقاذ قبر المسيح ومهاد النصرانية من قبضة الإسلام. لم يكن إلا حجة ظاهرة تخلب ألباب المؤمنين من البسطاء والكافة) ص ١٤٢.

أما الكتاب الثاني في تاريخ مصر الإسلامية القسم الثاني فيتحدث في الفصل الأول عن الشدة العظمى والفناء الكبير وفي الفصل الثاني عن (رواية مصرية عن ممالك الغرب والجمهوريات الإيطالية في القرن الرابع عشر).

والفصل الثالث عن (العلائق الدبلوماسية بين مصر وجمهورية البندقية).

والفصل الرابع عن العلائق الدبلوماسية بين مصر وأراجون على ضوء الوثائق التاريخية.

والفصل الخامس عن (ابن عربشاه مؤرخ تيمور وكتابه عجائب المقدور).

وعقد المؤلف الفصل الخامس عن (المجتمع المصرى فى القرن الخامس عشر). وهو عصر

انحدار.

فالمقريزى وجمال الدين أبو المحاسن تغرى بردى، والسخاوى، وابن إياس، شاب الأسى على مصر كتاباتهم. يقول المقريزى (تقلص ظل العدل وسفرت أوجه الفجور، وكشر الجور عن أنيابه، وقلت المبالاة، وذهب الحياء والخشية من الناس، حتى فعل من شاء ما شاء، وتعددت منذ عهد المحن التي كانت فى سنة ست وثمانمائة الحجاب، وهتكوا الحرمه وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى).

وشبيه بهذا ما كتبه «الجبرتى» فيما بعد.

أنا هنا لا أسرد تاريخا ولكنى أقف عند ظاهرة خطيرة فى الوقت الذى نتنادى فيه بإعادة بناء الإنسان المصرى وبإعادة تخطيط التعليم أقول: يتحتم أن تعلم المدرسة المصرية، الإنسان المصرى صغيرا حقوقه والحرص عليها، وأن يعلم المسجد المصرى الإنسان المصرى، كبيرا، حقوقه والحرص عليها.. فلا تعيد المدرسة وتزيد فى الخطب الملوكية ولا يعيد المسجد ويزيد فى العقاب والثواب فإن الإيمان الصحيح كرامة.. وإن الطاعة لا تكون إلا فى مرضاة الله.. فإذا انتفى شرطها، انتفت وكان انتفاؤها، دينا.

لو أن الإنسان المصرى عرف حقه لحسب الحاكم حسابه فى أى عصر من العصور وخشيته خشية يعتدل بها الميزان، فتختفى من التاريخ المصرى الطبول والقماقم والسرقات والإتاوات والنزوات، والنهب، والوهب وينتهى تاريخ ويبدأ تاريخ.

يقول ابن إياس فى (بدائع الزهور) أنه (فى رجب - ٨٩٥ هـ كان ختان ابن السلطان المقر الناصرى محمد، وكان عمره يومئذ نحو من أربع سنين وأشهر، وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية، وكان من نوادر المهمات، فاجتمع به سائر مغانى البلد، ورسم السلطان أن تزين القاهرة فزينت زينة حافلة، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد).

كم دفعت مصر في الختان، والأفراح والإستراحات.

يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان:

(هذه الحوادث، بل هذه الصغائر وأمثالها، هي كل ما استطاع المؤرخ أن يدونه عن حياة مصر العامة في القرن الخامس عشر، وقد تشعر وأنت تقرأ سيرة هذا العصر أنك في دوار، إذ تسير من صغيرة إلى مثلها، ومن سخف إلى غيره، في أعوام بل أجيال متعاقبة. ولا تقرأ في أخبار الدولة ومهامها سوى نقمة السلطان أو رضاه، على حاكم أو كبير، وقدوم كبير إليه بهدية فخمة، أو خلعه على من يصطفيه، ومصادرته لمن يتغير عليه، ولا تقرأ من الحوادث الإجتماعية إلا إقامة مولد، والإحتفال بزواج أو ختان أو أمثالها، ولا تجدد في حياة الشعب سوى الضجيج والمرح، والهتاف والطرف، والذعر والإستكانة، والجمود والسخرية).

\*\*\*

ما أشبه الليلة بالبارحة. والمخيف في هذه الظاهرة أنها تقترن دائما في التاريخ المصرى بالهاوية.

عصور الإنحدار الإجتماعى والسياسى تسلم مصر دائما إلى الغزو الخارجى ويحدث أكثر من مرة أن يقابله الشعب المصرى باللامبالاة لأن القهر الداخلى لا يترك له شيئا يدافع عنه.. ما الفرق بين القهر الخارجى والقهر الداخلى.

لقد بلغ الأمر بالبعض، أحيانا أن يرى فى النكبة إنتقاما له من القدر، وإيدانا بالخلاص.. وبالطبع لا يكون خلاص أو نجاة.. والذي يحدث أن الشعب المصرى يدفع الثمن غالبا فى الحالىين ولو عرف كيف يوقف البغى فى بدايته قبل أن يستفحل لوفر على نفسه كثيرا ولكن.. وعقد المؤلف الفصل الثامن عن (الفتح العثمانى فى رواية ابن إياس) ولو أنه حمل عليه، وحين سجل له أنه تلميذ السيوطى لم تفته المقارنة فقال (كان أستاذه السيوطى يأخذ بقسط وافر من جميع نواحي العلوم والآداب فى عصره، ولكن شتان بين الذهنيين) ص ٢١١.

وعقد المؤلف الفصل التاسع عن (مصر فى خاتمة القرن السابع عشر كما رآها العلامة عبدالغنى النابلسى).

أما الفصل العاشر فعن (مصر في أواخر القرن الثامن عشر كما يصفها الرحالة سافارى) و «لود إيتان سفارى Savary جاء مصر سنة ١٧٧٦ م وأخذته آثار مصر الفرعونية فندت عنه هذه الهتفة:

(إن من يرى الآثار التي تحتفظ بها مصر يستطيع أن يتصور أى شعب هذا الذى تحدث صروحه أحداث الزمن. فهو لم يكن يعمل إلا للخلود، وهو الذى أمد هو ميروس وهيرودوت وأفلاطون بكنوز معارفهم التى أسبقوها على بلادهم).

وهذا الرأى لمحة من كتابه Letters sur L'Egypte

الكتاب الثالث يدور حول (صور من الأدب المصرى) وقد عقد الفصل الأول عن (حلقات الأدب فى القسطنطينية)

لقد فتحت مصر فى القرن السابع الميلادى سنة ٦٤١م - ٢١هـ.

ولم يكد يمضى عليها قرن حتى كانت مدينة القسطنطينية (مركزاً للتفكير والآداب، يحج إليها كثير من أعلام المشرق. وكانت مصر قد أخذت تتبوأ مكانتها الفكرية والأدبية بين الأمم الإسلامية).

ثم تكلم المؤلف عن أبهاء القسطنطينية أى الصلونات الأدبية وكانت ملتقى الأدباء من المشرق والمغرب ينضمون إلى أدباء مصر ويقول المؤلف عن هذه الحلقات (كانت فى بدايتها دينية فقهية، وكانت لها أهميتها فى تمحيص السنة والرواية).

وكان الإمام الشافعى نزيل القسطنطينية وعاش بها سنين فى مصر من ١٩٨ هـ - ٢٠٤ هـ كان (قطب الحركة الفكرية فيها، وكعبة الصفوة من فقهاءها وأدبائها، يجذبهم إليه غزير علمه ورفيع أدبه، وبارع خلاله. وكانت حلقات القسطنطينية الأدبية شهيرة قبل مقدمه، ولكنه أسبغ عليها بهاء وسحرا وروعة).

وفى القسطنطينية تفتحت موهبة الشاعر أبى تمام الطائى وكان يقيم بها.

واشتهرت القسطنطينية بمجالس الجمعة التى كانت تعقد عصر الجمعة من كل أسبوع (كانت تعتبر موسما أسبوعيا يفص المسجد فيها بجمهرة الفقهاء والأدباء والقراء والنظارة وفيها كانت

البحوث الكلامية والمناظرات الأدبية والمطارحات الشعرية والرواية التاريخية، تنظم في حلقات فرعية أو متعاقبة).

وقد أسهب في وصف هذه الحلقات ابن زولاق في كتاب (سبويه المصرى) (منه مخطوط بدار الكتب يرجع إلى القرن الرابع الهجرى).

ثم جارت السياسة على الفسطاط فى الربع الثانى من القرن الثانى الهجرى واستعادت الفسطاط مكانتها فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى على يد الدولة الطولونية ثم تألقت من جديد فى اوائل القرن الرابع وعادت بأيامها ولياليها التى يقف عندها طويلا ابن سعيد المغربى فى كتابه.

(المغرب فى حلى المغرب).. هذا حين كانت بغداد تنهاوى.

ظلت الفسطاط عصورا، متألفة حتى بعد أن قامت القاهرة تزهر بالأزهر، إستطاعت الفسطاط أن تنافس القاهرة، وتعلو مصر. وتزهو بالمدينتين معا.

وبعد هذا قامت المدينة الصالحية التى أنشأها الملك الصالح فى جزيرة الروضة قبالة الفسطاط سنة ٦٣٨ هـ فلم تخمل الفسطاط بل انسحبت العناية عليها.

ومضى الفصل الثالث بـ (قصة غرام فاطمية) أما الفصل الرابع فعن (معارك قلمية مصرية فى القرن التاسع الهجرى)

وعقد المؤلف الفصل الخامس عن (الروايات الكنسية والنصرانية وقيمتها كمصادر للتاريخ الإسلامى).

والفصل السادس عن (خواص مصرية مميزة للأدب العربى فى مصر)

الأدب المصرى الإسلامى يمكن اعتباره شعبه قائمة بذاتها فى تراث الأدب العربى.

لقد كان هناك أدب أموى وأدب عباسى وأدب أندلسى على كل منها طابع المجتمع الذى عاش فيه. (ولكن الطابع الخاص الذى أتخذه الأدب العربى فى مصر لا تقف عوامله عند هذا الحد، بل يرجع إلى عوامل محلية أخرى، تجعله من حيث الخواص واللون، أشد ظهورا وقوة).

وقد حدد المؤلف هذه العوامل:

(أولا وأهمها ما يتمتع به المجتمع المصرى منذ عصر الفراعنة، من حيوية غريبة كانت دائما تغلب كل ما هو أجنبى، وتطبعه بطابعها القوى، فترى آثارها ماثلة فى العهدين اليونانى والرومانى رغم ما كانت تتمتع به كل من اليونان وروما من حضارة عظيمة. وقد كان أثر هذه الحيوية أقوى وأشد فى المجتمع الذى أقامه الإسلام فى مصر لأن الفاتحين العرب تلقوا فى مصر تراث حضارة عظيمة ولم تكن الحضارة الإسلامية قد تفتحت بعد.

\* منها موقع مصر الجغرافى وجوها الخاص ونيلها الخالد وروعة مناظره الطبيعية.

\* ومنها توسط مصر بين الشرق والغرب وأنها لبثت عضورا طويلة تقبض منذ الحروب الصليبية على زمام الدبلوماسية الإسلامية فى البحر المتوسط.

\* ومنها أن مصر فى هذه الحروب كانت الحاجز الصلد الذى تكسرت عليه فورات هذه الحروب البربرية.

\* ومنها آثار البيئة الشعبية المصرية فى تطور الأدب العربى.

\* الذهن المصرى وما ابتدعه من صنوف وطرائق خاصة فى التفكير والأدب.. ومن المسلم به أن مصر لبثت تتولى قيادة التفكير العربى فى المشرق عضورا طويلة.. (فقد وفق الذهن المصرى منذ القرون الأولى للهجرة إلى إبتداع صور فريدة فى الأدب العربى نسج على منوالها كتاب المشرق والأندلس فيما بعد. وقد أخرجت مصر فى الشعر والنثر والنقد الأدبى شخصيات فريدة من حيث خواصها وطرائقها قلما تماثلها شخصيات أخرى فى تراث الأدب العربى).

ويضيف المؤلف أن من هذه العوامل (نوعا من الإلهام الذى يصعب ضبطه وتحديده: هذا الإلهام الذى يوحى الشعور القومى.. واستطاع أن يخلق لمصر من تراث الإسلام والعربية تراثا قوى المصرية وما يزال الذهن المصرى إلى يومنا يسبغ هذا الطابع المصرى العميق على آدابنا).

\*\*\*

الفصل السابع عن (حركة الترجمة والتأليف فى قرن من تاريخ مصر الحديث).

وتصدر هذا الفصل بالطبع أسماء مضيئة مثل: رفاة الطهطاوى.

وكم لمصر من علامات مضيئة على طريق العروبة والإسلام والحضارة على مسيرة التاريخ الإنسانى قاطبة.

## المرأة المصرية القديمة

ألف هذا الكتاب الطيب النابه الدكتور محمد فياض  
وقد كتب للكتاب إهداء من أروع الإهداءات التى قرأتها  
إلى المرأة المصرية  
إلى كل امرأة  
إلى كل أم قدمت لمصر يدا تبنى، وساعدا يحمى  
إلى كل امرأة أسعدنى أن قدمت لها - من علمى وخبرتى الطبية- كل ما أعانها على أداء  
رسالتها.

إلى عشرات الآلاف من البنات المصريات اللاتى جئن إلى الحياة على يدى.  
إليهن جميعا، أقدم حصيلة قراءتى عن المرأة المصرية القديمة التى كانت وراء أعظم  
حضارات العالم القديم.

إليهن  
وإلى زوجتى  
وإلى أمى  
أهدى وأقدم هذا الكتاب

\*\*\*

قرأت هذا الإهداء، مرات  
إنه إهداء إلى المرأة المصرية التى أسهمت فى صنع الحضارة على هذه الأرض الولود... أم  
الدنيا لأن الدنيا بدأت بحضارتها التى أبدعتها على غير مثال.

وهو إهداء المرأة المصرية، بدورها، إليه طيبا وعالما ونبعا من حنان فهو الذى وقف إلى  
جانبا فى أدق الساعات.. وهو الذى جاءت عشرات الآلاف من البنات المصريات إلى الحياة على  
يده الرحمة الكريمة السخية بالصبر والراحة والطمأنينة.

إنه نبع من الشمائل فياض.

بقى إهدائي المتواضع إليه فعلى يده المسعده جاءت ابنتى حبيبتى  
ثم شبت وعلى يده الواعده جاءت ابنتها حبيبتى  
وإهدائي لم أكتبه اليوم بل كتبتة منذ خمس سنوات:

ففاض الرجاء على يدك ونورا	ورآك أول من رأس فاستبشرا
فياض تحبو من يدك زهورنا	وتدب فوق الأرض حتى تكبرا
أطلعت فينانا كبر عم زهرة	ثم استوت وغدت عطاء مثمرا
وعلى يدك أنت بأخرى مثلها	فيناانة جل الذى قد صورا

لقد أسعدنى الحظ أن يكون عملى، كطبيب وجراح نسائى، مع المرأة عموما، ومع المرأة المصرية بوجه خاص. وقد ثبت لى أن كثيرا من نظريات طب المرأة والولادة وما إلى ذلك كان معروفا بل ومستخدما عند المصريين القدماء. وقد خرجت بهذه الخلاصة من قراءات واسعة، عبر آلاف الصفحات، فى العديد من الكتب، بالعديد من اللغات التى كانت تتحدث عن الحياة فى مصر الفرعونية القديمة بشكل إجمالى.. ولكن دون تخصيص جانب محدد يتعرض للمرأة المصرية القديمة وأحوال حياتها).

إن الذى أمامنا ليس مجرد كتاب فى محيط محدود من المراجع ولكنه خلاصة قراءات واسعة. إنه صورة معمقة للمرأة المصرية سليلة أعرق الحضارات طرا.. فإن مقياس الحضارة، مكان المرأة فيها.. ولم تكرم حضارة من الحضارات، المرأة، كالحضارة المصرية ثم الإسلام.

وبعد هذا يتواضع الدكتور فياض التواضع النبيل وكم يكون نبلا أن يتواضع الكبير فى قمة العطاء وفى قمة الكبرياء النفسى والعلمى.

هل تصدق أن طيبيا هو علامة مضيئة فى ميدانه يقول بعد كتاب كبير حافل:

لم أقدم من عندى سوى النذر اليسير من المعلومات، وشذرات قليلة من أفكار وملحوظات.. مستخدما ذلك فى إعادة تقديم ما قرأته بإمعان فى كتب قيمة، وما استمتعت به من خلاصة جهد أساتذة متخصصين كبار).

وصف الدكتور فياض، المصرى القديم من واقع الرسوم فى المعابد والقصور والحداريات والآثار فى القبور فى أسلوب يغلب عليه فى بعض المواضع الطابع الأدبى.. فحين الاضطرابات (كان سهلا على المصريين أن يعيدوا السفينة إلى مسارها الصحيح بعد أن تنقشع العاصفة).

حب الأرض والإلتصاق الدافئ بها فى القرب، والحنين الجارف إليها، فى البعد حمى الأصول المصرية من الذوبان فى الآخرين.. كان هذا الحب سياجا عازلا وجاءت الصحراء من الجانبين فأكدت هذه العزلة.

يقول الدكتور فياض:

كانت المرأة المصرية عنصرا أساسيا فى الحضارة المصرية

أقول: يعزو بعض المؤرخين، الحضارة المصرية إلى نعيم الرجال فى بيوتهم فأعطوا، الحياة، خارجها من نفس راضية مستقرة وقريرة.

ومن الطريف قول الدكتور فياض فى سياحة بين الماضى والحاضر

كان المصريون يعتقدون أن السن الملائم للحياة هو ١١٠ سنوات (مائة وعشرة) - الحقيقة أنهم لا يريدون أن يتركوا مصر وهذا سر حلمهم بالخلود وعملهم له وكانوا يدعون بذلك فى صلواتهم. ويعتقد أن متوسط سن الإنسان الفرعونى كان ٦٣ سنة.. وكان معدل المواليد مرتفعا.. ويبدو أن أهل مصر لم يغيروا عاداتهم منذ القدم حتى الآن، فى التكديس السكانى، فى عدد محدود من المدن والقرى، وترك بقية رقعة أرضهم الشاسعة خالية

ويقول (كان الإنسان المصرى القديم إنسانا هادئا وحكيما إلى درجة غير عادية وهذا ما يؤكده علماء المصريات).

وكانت المرأة المصرية ككل أبناء شعبها، هادئة الأعصاب، مستريحة، شامخة مفتونة بالحياة ويكفيها فخرا هى وشعبها أن تاريخهم خال من الهمجية والبربرية، كغيرهم من الشعوب.

ويقول: (كانت المرأة المصرية تتمتع بحقوق مساوية للرجال، ليس على الورق، وإنما فى الواقع فعلا.. وذلك بعكس ما كان عليه الحال فى معظم الدول القديمة، مثل اليونان أو الرومان.. ومع أن هذه الحقيقة تعتبر أمرا غير مألوف بالنسبة لأوضاع الشرق، فإننا نجد لها منعكسة بوضوح تام فى الوثائق والكتابات، وكذلك فى الأعمال الفنية.

إن جميع المصادر تؤكد أن المرأة المصرية كانت دائما محل إحترام

أقول هل أدل على الاحترام والمكانة من أن المرأة المصرية بلغت في مصر دون سائر العالم القديم بل الحديث أن صارت نقيبة الأطباء؟

إن رمز الكتابه، إمراة هى سشات

ورمز الجمال إمراة هاتور

ورمز الحنان إمراة إيزيس

لقد حكمت المرأة المصرية وتولت العرش حتى فى وجود إخوتها الذكور مثل حتشبوت.. لقد كانت الملكة بنفسها وليس لأنها زوجة ملك.

يقول الدكتور فياض (فى بعض الأحيان كان التركيز يتم عند ذكر النسب على الأم أكثر من الأب)

أقول: وفى الإسلام التركيز على الأم كان كثيرا ومقدما.. ويوم القيامة ينسب الإنسان إلى أمه.

ويسجل الدكتور فياض أن المساواة الإجتماعية بين المرأة والرجل، يمكن تتبعها حتى عصور ما قبل التاريخ المكتوب.. وقد وجدَ فى حفائر الجبانات أن المرأة كان لها الحق فى أن تدفن فى مقبرة خاصة بها، مثل الرجل، مع وجود القرابين المناسبة والتماثيل والشواهد. وقد وجد أن مقابر كثيرة لسيدات من طبقات إجتماعية مختلفة، مثل الملكات والأميرات والوصيفات وزوجات العمال والموظفين لا تختلف فى تجهيزاتها الداخلية عن مقابر أزواجهن)

ويقول :

وكان حق المرأة القانونى الكامل - وبخاصة حق إدارة أعمالها الخاصة الذى يعتبر أحد الأعمدة الأساسية للمساواة- يشمل جميع المجالات القانونية.. كان من حقها أن تمتلك وتنتصرف فى الضياع والخدم والعبيد والمال والأشياء الثمينة، بحرية واستقلال تامين. كما كانت تستطيع إبرام العقود بجميع أنواعها، وأن تكون شاهدة على عقود الزواج، وأن تكتب الوصايا وأن تمنح العبيد حريتهم، أو حتى أن تتبنى أى شخص.

وكان للمرأة الحق في أن تتقدم إلى المحكمة النظامية بشكوى أو ترفع فيها دعوى، وفي هذا نجد أمثلة كثيرة، نقرأ في إحداها- موضوع إحدى المنازعات الخاصة التي قدمت للمحكمة المحلية في غرب طيبة:

في هذا اليوم تقدم الدعوى من المدعية المواطنة إيزيس ضد العمال:

خا- إم- إربى- وخا إم فيزى، وآمون نخت، وهي كالآتي:

فليعطوني أماكن زوجي يا - نخت. المداولة. حكم القضاة:

«المرأة على حق. فلتأخذ أماكن زوجها».

وهذا عكس القانون اليوناني تماما. ص ١٩

وكانت المصرية تولى بيتها إهتماما كبيرا لتجعل منه مكانا جميلا يتمتع بالهدوء والجمال. ومن بعض المناظر المرسومة، نجد أن المصرية كانت تعتبر الحديقة متعة خاصة في بيتها، فتهم بزراعتها وإنبات الورد بكثرة والإكثار من الأشجار للإستفادة من ظلالها ومما تثمره من فواكه وخضروات. وكان ضروريا أن تتوسط الحديقة بركة صغيرة، كنوع من الزينة وكمورد للماء.

أقول: مصداقا لقول الدكتور فياض، رأيت في المتحف المصرى، نموذجا للبيت المصرى- جنوب الدير البحرى رقم ١١ القاعة ٢٧ بالدور الثانى بالمتحف صورة طبق الأصل لما أصبح عليه البيت الإسلامى.

ما رأيت في المتحف المصرى الباب الكبير ثم حديقة ونافورة وسقيفه وصفين من الأشجار وعلى طول المسافة من الباب مرورا بالحديقة توجد حجرات على الجانبين كمخازن أو إستقبال يستقبل فيها رب البيت ضيوفه بعيدا عن البيت بحرمة وذاتيته.

وبعد السقيفة يبدأ البيت.

إنى أعتقد بعد الذى رأيت أنه البيت الإسلامى بطرازه التقليدى مأخوذ من البيت المصرى القديم كما أخذت النجوم مصر فالإله نوت جسمها مغطى بالنجمة الخماسية وقلادة الأميره خنوميت فيها النجمة الخماسية والنجمة السداسية والنجمة الثمانية.

وقد أخذ الإسلام من حضارة مصر فى سماحة وتواضع نبيل بدون إدعاء كاليهود أو انتحال أو عنجهية مصطنعة لتغطية مركب النقص وعقده.

يقول فرويد وهو من أكبر علمائهم (إن عقدة اليهود سبق مصر في الحضارة) يقول الدكتور فياض (كانت هناك بيوت على شكل فيلات، تتكون من دورين فى طيبه. ومدخل الغرفة الرئيسية مزين بالخشب المعشق.

وصف (رع يا) فيلته التى أقامها على شاطئ النيل فى جمالها ص ٥٩ وهدونها بقوله.  
(الفرح يسكن داخلها).

وكان فى البيت المصرى مجموعتان من الأطباق إحداها للإستعمال اليومى والأخرى من الألباستر للضيوف.. أى طقم.

أقول إن أثاث الملكة (حتم حرس) أم خوفو يدل على المرأة المصرية كانت مترفة رقيقة تتحلى وتعطر وليست ركيكة تتوسل بالبدايات كتب ألدز هكسلى أن البيت الإنجليزى فى عصر الملكة فيكتوريا كان به كرسى واحد ذى مساند (armchair) لجلوس رب الأسرة فقط.. بينما مصر صنعت أفخم منه للملكة حتم حرس.. للمرأة فقط.

يقول الدكتور فياض إن البيت المصرى القديم كان يعنى بدورات المياه والأدوات الصحية وقد وجد فى معظم البيوت جناح يتكون من حمام وحوض غسيل له مدخل من إحدى الغرف الرئيسية!!

ويقول (لم يكن هناك بيت يخلو من تكمية تتدلى منها عناقيد العنب.

وكانت ملابس المرأة المصرية من الكتان الذى تؤثره لملاءته جو مصر.. ومع العصر الوسيط دخلت الجونلة الطويلة (ماكسى) ذات الثنيات (البلسيه).

ويقف الدكتور فياض طويلا عند فنون التجميل والزينة التى تفتنت فيها المرأة المصرية القديمة يقول:

كانت المرأة المصرية القديمة -بإجماع المصادر- جميلة، تتمتع بقدر نادر من الجمال، وتوفر لنا الآثار التى عثر عليها، والمنقوشة على الجدران، كنزا كبيرا نستدل منه بسهولة على الأساليب التى كانت المرأة المصرية تتبعها لإضافة اللمسات الرقيقة إلى جمالها، وتتعرف على الأدوات والمواد التى كانت تستخدمها فى عمليات التجميل والتى لا تقل إتقاننا عن أشهر مستحضرات التجميل العالمية الحديثة.

وكانت المرأة المصرية تتمتع بقوام رشيق، وقد ممشوق بل يمكن القول إن السممة كانت من المظاهر غير المألوفة، وكانت مدعاة لسخرية الفنانين.

وكانت تتبع نظاما غذائيا دقيقا (كنوع من الريجيم) تحرص فيه على تناول كوب من الماء الدافئ «على الريق» كل صباح. وتتناول الأطعمة وكانت تتناول خبز الشعير، وتستعمل عسل النحل، لعملية المشروبات، وكانت تعمل على التخلص من فضلات الطعام، المتبقية بالمعدة، بتناول الزيوت المسهلة ثلاثة أيام كل شهر.. وكانت تحرص على مزاوله ألوان الرياضة المختلفة، إلى جانب الأعمال المنزلية اليومية. وعملت على تنظيم النسل، للحفاظ على صحتها من التدهور، نتيجة تلاحق الإنجاب.. واهتمت بالرضاعة الطبيعية للطفل وعمل على سرعة استعادة رشاقته بعد الوضع.

كانت النظافة عندها مقدسة.. فالمرأة المصرية هي أول من وضع سلوكيات التحضر للبشرية جمعاء.. لقد جاء بالنصوص القديمة حرصها على غسل يديها قبل الأكل وبعده.. وكذلك غسل قدميها فور دخول المنزل

وكانت المرأة المصرية عندما تبدأ تجميل نفسها، تبادر بالاستحمام، وكانت العقائد والطقوس تفرض التطهر بالماء قبل دخول الأماكن المقدسة.

ومما سجلته إبداعات الفنان المصري القديم، لوحة جدارية تمثل إحدى السيدات تستحم وهي جاثية على ركبتيها، وأمامها خادمتان إحداهما تصب عليها الماء، والأخرى تقرب منها زهرة لتشم عيرها.

أقول إنه الرفه الحضارى الذى عرفته مصر قبل ألوف السنين يقول الدكتور فياض:

وبعد إنتهاء الحمام كانت المرأة المصرية تمسك مرآتها البرونزية ذات الذراع الأبوسية والحواف التى تزينها زهرة اللوتس والمرأة هى أهم أدوات التجميل. إن المرأة أصبحت لدى المرأة المصرية رمزا للبعث والحيوية، لأنها تشبه قرص الشمس فى استدارتها ولعانها وانبعاث الضوء منها.

وكانت المروحة أداة أساسية لدى كل مصرية للحصول على نسمة هواء.

وكانت المصرية تكره الشعر الزائد فى الجسم وتعتبره نقصا فى النظافة وتزيله بالملقاط أو الشفرات وقد عثر فى مقبرة أم خوفو على شفرات من ذهب ونحاس.

وكانت المرأة المصرية مفرمة بالروائح النفاذة القوية وكانت الروائح تصنع من الزهور والفواكه والبذور.

وكان التزين وتضميخ الجسم بالدهون والعطور جزءا من حياة المرأة والإنسان المصرى بشكل عام.. لا يمكن الإستغناء عنه مثله مثل الأكل والشرب.. وفيه يتساوى الغنى مع الفقير. ولذلك أحتوى أجر العامل على كمية من الزيوت والضموخ بجانب الطعام.

وقد أقرت المرأة المصرية ببساطة الفساتين أو الأثواب على أساس أنها تؤدي وظيفة معينة ولكنها كانت تضيف إليها لمسات جمالية فتحرص على إقتناء وإرتداء مجموعة كبيرة من الحلوى والجواهر.

كان صناع الجواهر (الجواهرجية) المصريون على درجة مذهلة من المهارة والإتقان.. فلم يتفوق أحد حتى الآن على صنعتهم التي يمكن مقارنتها بأكبر بيوت المجوهرات العالمية العصرية.

وكان لرأس المرأة المصرية زينة خاصة، تأخذ أشكال الأكاليل أو الشرائط المصنوعة من الزهور الحية، أو من المعدن والأحجار شبه الكريمة.

ونصل إلى طلاء العيون، فنجد أنه كان عنصرا هاما في عملية التجميل لدى المرأة المصرية. وكان هناك لونان شائعان في الإستعمال، هما الأسود والأخضر اللذان يرجع تاريخ إستخدامهما إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

واللذان عثر عليهما في المقابر في صورة مواد خام أو رقائق أو بودرة أو معجون.

وكانت موضة العين الشائعة في مصر لدى النساء هي عين الطيبي، أو العين على شكل اللوزة.

واهتمت المرأة المصرية بتقليم أظافرها وتهذيبها، واستعملت لها بعض الطلاءات وبخاصة الحناء، كما استخدمت الحجر الأسفنجي لتنعيم الكعبين.

وكان من عادة المرأة المصرية تصنيع حبوب اللبان وغيره، وتضيف إليها عسل النحل، ثم تقوم بمضغها، فتجعل الأنفاس طيبة الرائحة.

أردد مرة أخرى أن المصريين عملوا للخلود. من هناء العيش عشقوا الحياة فاشتبهوا ديمومتها واستمراريتها.

يقول الدكتور فياض:

كان المصريون القدماء شعبا يعرف كيف يرفه عن نفسه، ويتسلى بوقته، ويتريض ويسترخى. وهو أمر تصوره لنا المناظر فى كل مكان وبكل وضوح، وبالتفصيل.. ويعتقد أن الحجم الكبير من المتعة التى وجد المصرى نفسه فيها فى الحياة، هو الذى دفعه إلى البحث عن استمرارية الحياة بعد الموت.

وقد كانت الرياضة والألعاب الرياضية تحظى بشعبية كبيرة بين المصريين، سواء كانت ممارستها بصورة رسمية فى حضور الفرعون، أو بطريقة غير رسمية، أو كجزء من الاحتفالات الدينية وليست هناك لعبة رياضية لم يلعبها المصريون ومنها: المصارعة والملاكمة، والسباحة، والعدو، والأكروبات.. الخ وهى تظهر غالبا فى صورة نشاطات جماعية.

وبسبب صفاء السماء وروعة المناخ، كانت رياضة الصيد والقنص وخصوصا فى الصحراء، محببه لدى المصريين.

وكان الأثرياء يمارسون رياضة ركوب الخيل وسباق العربات وقد أشتهر أمينوفيس الثانى وتحمس الثالث بأنهما كانا من محبى الرياضة الخارجية والرامية بالسهام.

وكان للأطفال لعباتهم ولعبيهم. تشهد بذلك الدمى والعرائس الدقيقة الرقيقة المجهزة بمجموعات من الملابس والكرة وأشكال الحيوانات ذات الأطراف المتحركة وهناك مناظر لأولاد وبنات يؤدون نشاطات جماعية مختلفة، مثل الألعاب والمسابقات الرياضية والتحطيب والرقص التوقيعى ومن النشاطات الأخرى التى كان المصريون يشجعون أولادهم عليها- على الأقل فى الأسرة المالكة والنبلاء:

السباحة ورمى السهام وركوب الخيل

وكان المصريون يحبون الصيد. وتظهر أولى مناظر الصيد عام ٣٣٠٠ ق. م.

وكان الصيد فى الأحراش يتضمن صيد الطيور أو السمك أو وحيد القرن. وقد سجلت كل متع الصيد فى بردية عنوانها: (متع صيد السمك والطيور البرية).

وقد سجلوا، كعادتهم، عمليات الصيد وفنونه مع صور كثيرة ومن الطريف أن صيد السمك كان يتم بالرمح.. أما الخطاطيف والشباك، فلم يكن يستخدمها سوى الصيادين المحترفين.

وفى مقبرة «نخت» نجد رسما يبين طريقة صيد الطيور حيث يبدو نخت وأفراد عائلته وخدمه فوق مركب خفيف من البردى يستخدم للسير فى المياه الضحلة. وهو مصنوع ببساطة من جريد البردى المجدولة، وله منصة خشبية فى الوسط يتحقق بها التوازن.

حياة مليئة بالمتعة والتنوع والرفه والترفيه والترويح وكل هذا مصحوب بالفن تسجيلا ورسما وتصويرا..

إنها حياة تستحق أن تعاش وأن تسجل وأن ننتمى إليها وإليهم.

### الموسيقى

ولكى نعرف نوع الموسيقى المصرية القديمة، يكفى كما يقول الدكتور فياض أن ننظر إلى الآلات الموسيقية التى بقى منها الكثير لدينا سليما، والتى يمكن تقسيمها إلى ثلاث فئات: الوترية والنفخ والدق. تشمل الوترية الهارب والقيثارة والبربط (آلة شبيهة بالقيثارة) والعود واختلف حجم الهارب وتراوح عدد أوتاره بين أربعة وعشرة..

ومن آلات النفخ الفلوت، والكلازيت، والمزمار، ولم تكن الطبول مستخدمة فى الأوركسترا.. إذ كانت مخصصة فقط للأغراض العسكرية والدينية.

ومن الآلات: الدف والطبله والتامبورين. أما التصفيق والقلقاله، والصنج والأجراس، والسيتر فكانت فقط للإستعمال الدينى.

وتضم مجموعة المتحف البريطانى مناظر للمجموعات الموسيقية. وكانت الموسيقى أكبر ضيافة.

الرجل المصرى حين يولم لضيوفه يستقبلهم ويقدم لهم الخدم، الزهر ثم يعطونهم أقماع البخور ليضعوها فى شعورهم ولكن أهم من هذا كله أن الموسيقيين كانوا يعزفون الموسيقى.

كانت الموسيقى فنا مرموقا فى مصر القديمة

يقول الدكتور فياض (إن المصريين القدماء هم أول من عرف السلم الموسيقى) ص ٩٣.

وهم أيضا أول من عرف حياة الأسرة فى سمتها الرفيع ومعناها العميق الزاخر بالودادة والرفقة والحنان ففى التماثيل والنقوش نرى الزوجة جالسة أو واقفة إلى جانب زوجها، براحة

ويسر، تحيطه أحيانا بذراعتها أو تترك أصابعها مرتاحة فوق ذراعه أو يده.. أو نرى الزوجة وهي ترفه عن زوجها أو وهما يتعبدان معا.

يقول الدكتور فياض:

ويمكن القول، بكل إطمئنان، أنه من النادر أن نرى فى أية حضارة قديمة الأزواج فى مواقف كهذه ناطقة بالود والألفة.

ومن أمتع فصول الكتاب فصل (الأمومة: الحمل - الولادة - الرضاعة)

هل لأن الدكتور فياض طبيب جراح نساتى؟ أم لأنه يتعامل مع الأمومة والحياة الجديدة التى يستقبلها كل يوم؟

إنه يقف بنا عند نص كريم أسر هو: نصيحة الحكيم أنى لابنه ومؤداه:

ضاعف الخبز الذى تعطيه لأمك

واحتملها كما احتملتك

فقد كنت عبئا عليها، ولم أكن لأستطيع مساعدتها

قد ولدت لها بعد تسعة أشهر..

وضممتك إلى صدرها وأرضعتك طيلة ثلاث سنوات كاملة.

وعلى الرغم من فضلاتك فإنها لم تشمئز منك ولم تقل ماذا أفعل لقد أدخلت المدرسة كى تتعلم القراءة والكتابة.

وكانت تذهب إليك كل يوم، حاملة إليك الطعام والشراب من منزلها

والآن وقد أصبحت شابا، واتخذت لك زوجة وأسست لنفسك منزلا تذكر المتاعب التى

عانتها أثناء تنشيتك

واحرص ألا تغضب عليك وترفع أكفها إلى الله فيسمع شكواها.

ومن الطريف ما سجله الدكتور فياض من أن (بين الطقوس المتعلقة بالولادة، أن السيدة التى توشك على الوضع كانت تصفف شعرها بتسريحة خاصة، ثم تعتزل قبل الولادة مباشرة فى مكان

يسمى تكعيبه النفاس، أو بيت الولادة (ماميزى) الذى يوجد فى أحد المعابد العامة، أو هو مكان يتم بناؤه بسرعة، إما فى الحديقة أو فوق سطح البيت) ص ١١٤ .

ويقول الدكتور فياض أن «كرسى الولادة» المعروف فى ريفنا، (هو أحد أفضل أوضاع الولادة، وذلك لأنه يتفق مع تكوين جسد المرأة لدرجة تجعلها لا تكاد تشعر بأية آلام تذكر، وهى تلد فى هذا الوضع، بل إنها فى هذه الحالة تستخدم جسمها فى تكوينه الصحيح، الذى خلقه الله عليه).

ويقول الدكتور فياض عن وصفه: تشخيص الحمل عند قدماء المصريين.

(يلبل كيسان، يحتوى أحدهما على شعير والآخر على قمح مع بول سيدة، فإذا نموا، فيعنى هذا أنها حامل، وإذا نبت القمح قبل الشعير، كان هذا دليلا على أن الوليد ذكر، وإذا نبت الشعير أولاً، كان المولود أنثى).

وإذا تزوجت المصرية من زوج لا تريده، ترد إليه نصف المهر وتحصل على حريتها.

على أن الإنسان المصرى كان يسمى الطلاق (المسلك الأحق) ويشق على نفسه أن يفشل زواجه إلى درجة إعتبره نارا حارقة وفى بردية (تفسير الاحلام):

إذا رأى رجل سريره يحترق، فهذا نذير سىء فإنه يعنى فراق زوجته وخروجها وإذا طلق المصرى زوجته إحترم حقها فى الحرية وفى اتخاذ زوج آخر بينما (الفقرة ١٤١) من قانون حامورابى أن المطلقة تدان وأن الرجل وحده هو الذى يملك قرار الطلاق وأن الزوجة لا تعطى شيئا مقابل طلاقها!!

وهنا يحق لنا أن نقابل بين هذا وبين صيغة وثيقة طلاق، مصرية ترجع إلى الاسرة ٢٦:

قال (فلان) للمرأة (فلانة) لقد طلقتك وليس لى عليك أى حقوق باعتبارى زوجا لك.. ولن أقف عقبة أمامك فى أى مكان تذهبين إليه لكى تتزوجى فيه.

ولن يكون لى الحق فى أن أقول إنك زوجتى إذا ما وجدتك مع رجل آخر فمنذ الآن ليست لى أى مطالب عندك كزوجة ولن أتخذ أى إجراء ضدك.

وكان عقد الزواج في مصر القديمة يتطلب ستة عشر شاهدا بينما وثيقة الطلاق يشهد عليها أربعة فقط لأن الزواج كان محببا بينما يحضرون اتمام الطلاق في أضييق نطاق.

إنه أسلوب مصر الحضارى فى كل تصرف

إن المرأة المصرية، ملكة، لأنها زوجة تحاط بهذه الهالة. إنها ملكة على عرش بيتها.

وهى ملكة على عرش مصر أعرق العروش فليست هناك حضارة فى تاريخ العالم القديم كان بها كما يقول الدكتور فياض هذا العدد الضخم من الملكات الحاكمات، سوى الحضارة المصرية.

إن ملكات مصر فى هذا الكتاب موضوع كبير يفرد، له، الحديث.

وحتى إذا نظرنا إلى عالمنا الحديث، فإننا نجد أن الحضارة المعاصرة قد احتاجت إلى خمسين قرنا من الزمان، لكى تأتى بالمرأة ملكة أو حاكمة فى بعض البلدان كإنجلترا مثلا.. وهذا وسام شرف للمرأة المصرية القديمة التى أسهمت فى تشييد حضارة تحترم المرأة وتقدر لها دورها الخلاق.

وبعد فهذا الكتاب بدوره، وسام شرف على صدر الدكتور فياض الطيب والرجل بما يحمل من دلالات عميقة على تفكيره الحضارى وأسلوبه الحضارى وإتنامه الحضارى فإن الذى يحترم المرأة بهذا القدر، إنسان رفيع.

## كتاب (سندباد مصرى)

قرأت (كتاب سندباد مصرى) فى ثلاثة شهور وكان باستطاعتى قراءته فى شهر واحد بل فى أسبوع واحد ولكنى كنت استمرىء القراءة.. كنت أقرأه وأترشفه وأغنيه.. نعم إن كتاب سندباد مصرى أغنية عذبة.. إنه قصيد مصرى حلو النشيد.. لم يكن كتابا وإنما هو فسحة فى العمر.. ومن الأسفار ماتزويد على قراءته، الأعمال طولا وعرضا وعمقا وغنى.. هذا الكتاب المصرى النبيل كان لمصر محرابا وكان صلاة.. أم فيها صاحبه، قراءه، فى خشوع عابد متصوف.. إنه «شعب نامه» كما يحلو لصاحبه أن يسميه أو ملحمة الشعب المصرى..

تحدث الدكتور حسين فوزى فى مطلعه عن الغزو العثمانى فلم تنل منه الناحية السياسية له والعسكرية وإنما الذى كرته وشجاه.. وشجائى أن ينقض سليم على بيوت مصر والقاهرة ينزع منها أئمن ما فيها من منقول وثابت.. حتى الأخشاب والبلاط والرخام والأسقف المزيكة والأعمدة السماقية ببايون القلعة، ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكى والكراسى النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمنابر.

هذه هى الحرب الجزرية، وذلكم كان الغزو الأكبر الغاشم، أن يعود سليم وأجناده العثمانية محملين بالأسلاب الغالية، نماذج أصيلة لحضارة مشرقة.

ولكن سليم يبطشه وتسلطه كان يخشى مصر وهو الغالب، وليس أدل على خوفه منها خوفا كان يخفيه، فيستعلن فى صورة تفشيه، من هذا فقد نودى فى القاهرة بأن لا أحد يصنع خيال الظل، ولا مغانى عرب ولا غير ذلك.

إنها مصر التى يعرف غزاتها قدرتها المعهودة على التندر والسخرية منهم كشأنها فى الاستعلاء على النكبات والأحداث.

وفى الكتاب يزحم عينك، الوافدون، دخيلا بعد دخيل.. إضطهاد.. إضطهاد حتى لا نكاد نفيق.. قصص كثيرة.. مثيرة أو (قصة واحدة طويلة تدور حوادثها حول أشخاص عديدين، من جنسيات ولغات وعقائد مختلفة ولكن بطلها واحد، هو الشعب المصرى). لأنه لفظهم جميعا خرجوا من أرضه وخرجوا من التاريخ وبقى هو أعرق الشعوب لأنه صاحب أعرض حضارة.

ولكن اطمئن فإن هذا المزيج الكريه لم يتناول (سوى الطبقات الحاكمة والعسكرية، وبقي المصريون، كما نرجو أن يبقوا على صفحات الزمن، خلاصا، يحتفظون بصفاتهم الأصيلة.. ويواصلون عملهم الحضارى فى الزراعة والصناعة والعمارة والفنون، مثل أجدادهم..)

بل إن الحضارة والصناعة والعقائد المصرية العتيقة، تركت أثرها فى حياة الواغليين أنفسهم.. (تركت أثرها فى حياة الأغريق الاوائل، وغير الأغريق، من شعوب العالم القديم، هذا إلى أن عبادة إيزيس، بالذات إنتشرت فى العالم الهلينستى والرومانى) وحين اعتبر الرومان عبادة سيرابيس وإيزيس من المؤثرات الضارة فى المجتمع الرومانى، لم تدم مقاومتهم طويلا، فقد أنشئ أول معبد فى روما لسيرابيس وإيزيس فى عهد.. دومطيانوس قيصر (٨١-٩٦) (إنها مصر).

هذا ولم تدع مصر غيرها إلى دينها بل إن هذا الغير هو الذى إرتضاه واعتنقه مقتديا بها وما كان هذا ليعنيها لا.. بل إن البطالسة حين حاولوا أن يوائموا بين عقائدهم السطحية وبين ديانة المصريين المليئة بالأسرار، أخفقوا إمام احتفاظ المصريين بديانتهم، وكرههم أن يتدخل الغرباء فى طقوسهم وأن ينفذوا إلى دخائل إيمانهم!..

إنها مصر..

إنها مصر التى تقاطع غزاتها مقاطعة روحية من شدة إحساسها بذاتها.. إنها مصر التى تسيطر شخصيتها على الفاتحين. لقد استطاع الفتح الإسلامى أن يحمل إليها الإسلام واللغة العربية ولكنها فرضت شخصيتها عليه بطريقة أو بأخرى يوم جعلت مصر من نفسها واسطة عقد العروبة وحولت الأزهر إلى مركز عالمى للدراسات الإسلامية وانتهى بها الأمر إلى إستقدام الخليفة العباسى ليقم بها وليكون فيها فى عهد الظاهر بيبرس ثم تولت الدفاع عن الإسلام ضد التتار فإن الخليفة العباسى فى بغداد الذى عيرها بتولية شجرة الدر قد خذله رجاله فلم ينفر أحد للذود عن الخلافة والخليفة غير مصر واضطلعت بالدفاع، مصر ورجالها وذهبت بفخاره حين صدت المغول والصليبيين ومضت فى طريقها إلى يومنا هذا تصنع التاريخ وتكيف الأحداث غالبه أو مغلوبه. لقد تصرفت بنية كريمة الأصول ولو غيرها فى مكانها لأنتهز الفرصة للاستقلال عن الخلافة ولكنها فى المحنة تصرفت فى ارتفاع العظيم.

إن الغزو والغزاة يحسب لمصر لا عليها فما يثبت على الرزايا والمحن ويخرج منها سليما فى طبيعته وصفاته لا بل يفنى الغزاة أو يلفظهم أو يقاطعهم ويمضى فى صناعته الأصيلة صناعة

الحضارة، غير شعب قادر جبار عتيد قوى الذاتية، أسر الشخصية.. راسخ القيم، عريق التقاليد، بالغ الإعتداد بنفسه.. بنهره.. بشمسه.. بأرضه.. بكل مقومات حياته.. بكل أعراق ماضيه..

شعب زارع بناء صناعات اليدين، ذكى القلب سوى الخلق.. حساس الضمير.. شعب عاطفى سمح خلاق ذواق للفن، حلو السمائل عذب الروح، نبيل الإنسانية، شعب هوائته المحببة الحضارة وصناعته.. الحضارة.. سواء حكمه محب للعلم، ذواقه للفن، أو بدائى مغامر قوته عضلات وليس الرهاقة والنفاسة والذكاء وروائع الفنون والأداب، مغامر.. شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضا.

وفى الكتاب قيم تاريخية فهو ييلور حقائق قد تكون كامنة فى النفوس ولكنها لا تعرف طريقها إلى الظهور فقد يكون أصحابها يحسونها إحساسا غامضا أو إحساسا يعوزه التعبير عن نفسه.

فإن الكتاب أو مؤلفه فى تنقيبه عن الشخصية المصرية إكتشف أسلوب مصر فى مقاومة البغاة.. أسلوب المقاومة السلبية أو العصيان المدنى.. فواجب المراقب أو المؤرخ ألا يعتمد على الثورات والإضطرابات وحدها كعلامة على يقظة القومية المصرية وأنها لكثيرة على طول التاريخ المصرى بيد أنها لا تنقف وحدها فى الميزان (لأن المصريين أول من حذقوا ما يعرف بالمقاومة السلبية.. وإذا كانت بعض حركاتهم القومية لم تعرف باسم (العصيان المدنى) فكثيرا ما كانت كذلك فى الحقيقة.

وحقيقة أخرى تطيب، يؤكدها العلماء وهى (أن المصرى الذى انعزل فى واديه الخصب وسط الصحراء والهضاب والجبال والبحار، إحتفظ بطابعه الإنتوغرافى، غير مشوب فى أغلبه إلى يومنا هذا. فإن بضع مئات الآلاف من أهل الشعوب التى إعتدت على مصر أو إستقرت فيها وعاشرت أهلها واختلطت بهم، لا يمكن أن تكون أكثر من قطرات ماء فى بحر خضم من بشرية مصرية أصيلة.

وحقيقة: (التوغل فى العراقة والقدم هو أول ما يميز التاريخ المصرى. ومن المشكوك فيه جدا أن تكون الحضارات التى قامت فى وادى دجلة والفرات أقدم من الحضارة المصرية، وهى على أية حال لم تدم دوام الحضارة المصرية).

وحقيقة: تذكر هذه ورددها: (الخرافة التي أطلقها هيرودوت، وتصور المصريين عبيدا للفرعون، قضى عليها المؤرخون المحدثون.. فأهرام الملوك، ومصاطب العظماء، كما نعرفها، وما تدل عليه من براعة فى الصميم، ودقة فى التنفيذ، وما تحويه من فن رفيع، لا يمكن تصور تحقيقها فى شعب من الأذلاء. لأن جو الإمتعاب الخائق يقضى على الملكات، ويمنع قيام العبقريات. وامحوتب العظيم، الذى ألهه المصريون فى الدولة الحديثة -وهو من رجال الدولة القديمة- لم يكن ملكا ولا أميراً، وإنما كان من آحاد الشعب المصرى، أرتفع بنبوغه وساد بعبقريته فى الخلق والتصميم والتنفيذ. وغير امحوتب العظيم أولئك الفنانون المجهولون الذين حفروا رسومات سقارة، ونحتوا تماثيل خضرة وشيخ البلد والملك بيبى والأمير رع- حوتب والأميرة نفرت، ورسما أوزميدوم، لا أتصور تيقظهم الفنى، وحريرتهم فى التعبير، فى جو عبودية وكبت تأمل حياة الشعب المصرى على جدران مقبرة «تى» وبتاح- حوتب وميراروكا وتجول فى حرم الهرم المدرج، وقف بأعمدة البهو القديم، تحس بحب الحياة، حياة شعب مطمئن هانىء، لا شعب يعيش فى قهر، إن المقهور لا يبدع الحضارة.

وحقيقة: مصر لا تفقد إستقلالها وإن قامت على حكمها أسر أجنبية، كالبطالسة والطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين. إنما مصر تفقد إستقلالها عندما تنزل إلى مرتبة الولاية والإيالة والأقاليم..

وقد اثبتت الكشوف الأثرية أرقاما فلكية لعمر مصر لقد اثبت الدكتور جمال حمدان أدوات زراعية عمرها يقدر بمائة وثمانين ألف سنة والزراعة تولد عنها الحضارة.

أمة ألفيه

وحقيقة:

(الميلاد اليومى للشمس، والميلاد السنوى للنهر يشكلان قسمات الطبيعة المصرية ولكن ذلك لم يكن ليعفى أهلها من الكفاح الدائم، أو ليحميها من الأخطار، مما يجعل ظفرها الموسمى أروع أثرا وأصدق، إذ لم يجىء نعمة سابعة، وإنما حققه التعب والنصب).

ويهب الكتاب بالمصرى أن يعرف (أسماء أمكنة بعينها منتشرة على جوانب (واديها) لها أهميتها فى تلمس طريق الحضارة ومسالك التاريخ الطويل الذى عاشه اسلاف اسلافنا منذ فجر الإنسان.

وهي أسماء لا يصح أن تبقى غريبة (علينا) ومتاحف العالم أجمع تحتفظ بأسمائها، وبغير قليل من آثارها. حضارة البدارى وديمه وكوم أو شيم والفيوم ونقاده والعمرة وجرزه ووادي خوف والمعادي وحضارة الواحات الداخلة والخارجة. هذا بالطبع غير حضارة الأقصر والنيا والصعيد كله.

يكفى أن تعلم أن حضارة البدارى قامت في نحو الألف الخامسة قبل الميلاد.

أخى فى المصرية تذكر ولا تنسى

(وأهم من كل ذلك أن تعلم أن المصرى، من أول العصر الحجري الوسيط، يتجه اتجاهها حضاريا مميزا تختص به مصر).

أخى فى المصرية تذكر ولا تنسى:

أن العصر الحجري الحديث فى مصر كان (سابقا بزمان سحيق على حضارة العصر الحجري الحديث فى اوربا، ومعنى ذلك أن أعظم خطوة من خطوات تطور الإنسانية حدثت غالبا فى وادي النيل الأدنى قبل أى مكان آخر.

ماذا أنقل عن الكتاب وماذا أدرع. أقرأ وما معى فصل (مرمده بنى سلامة). ان الكتب بعامة كتابان كتاب له طابع علمى وكتاب له طابع أدبى أو فنى ولكن كتاب (سندباد مصرى) كتاب علمى أدبى فنى تاريخى، شعرى معا.. الألفاظ فيه حقائق وقصائد معا.. لفظ له أعماق.. ولفظ له أبعاد ولفظ وراءه ظلمات ولفظ له أضواء ولفظ له إحياءات وظلال حتى النقط.. والمسافات فى السطور كنت أقرأ وراءها معانى كثيرة وأرى أشياء.. هل تذكر أشارتى فى هذا المقال إلى فصل (القيراط الخامس والعشرون) فى هذا الفصل تتكلم النقط والمسافات بما يبرز الخطب البليغة والمقالات المدبجة.. وكيف؟ أقرأ معى والكلام هنا عن الحسبة البسيطة التى نقلتها لك عنه.

(إحفظ هذه الحسبة البسيطة، فإنها لم تجيء من برما وإنما نقلتها عن ابن إناس ويمكن الإطمئنان إلى أنها طبقت على طول التاريخ المصرى، من عهد مينا حتى...)

هل عدت من الفسحة النفسية والفسحة الزمنية التى تبعد بك فيها وتمعن فى البعد، (حتى) هذه والنقط الثلاث؟

أما أنا فقد غرقت فى بحار (حتى) هذه وما يزال هذا حالى معها كلمات تذكرتها.

ويعود المؤلف إلى تفسير (حتى) فيزيدها غموضا وذكاء ولكنه الغموض الساحر الشفاف..  
والذكاء الذى يروع بتعاليه وتاهله معا.. يفسر المؤلف (حتى) التى تأسرنى فيقول.

فلنقل حتى يبع أراضى الدائرة السنية فى أواخر القرن الماضى..

وفى الكتاب شعر رائع.

(ومع أننى سافرت إلى أوربا كلفا بحضارتها- ومازلت، مما حكيت بعضه فى كتاب «ستبداد إلى الغرب»- فإن انصرافى التام إلى دراسة أهم مظاهر تلك الحضارة وأصولها، لم يحمنى من نوستالجيا أرض كيمي، وكان الحنين إلى الوطن يعاودنى فى فترات متباعدة طوال الخمسة الأعوام التى قضيتها بعيدا عن بلادى.. ويرى بعض المواطنين علاجا له فى أن يجتمعوا للإستماع إلى إسطوانات المطربات والمطربين المصريين، أو فى أن يأكلوا أكلة مصرية يصنعها واحد منهم.

وعرفت إلى جانب مثل هذه العقاقير، علاجا كنت أمارسه دون قصد أو وعى، إذ لم أفهم أن كان كذلك إلا بعد عودتى إلى بلادى. كنت أعرج على القسم المصرى من المتاحف الكبرى لأقضى فيه بعض ساعة. وأذكر جيدا زيارتى للكاتب المترجم الذى يعتمز متحف اللوفر به، لأنه حقا من أجمل أعمال الدولة القديمة. وإذا بالكاتب المصرى يفاجئنى بنظرات نفاذه لا تتجه إلى محدثه خيل إلى فى تلك اللحظة أن الرجل يرهف السمع إلى «لفظ» ثلاثة آلاف عام من تاريخ بلاده وبلادى، وأئننى أسمع هذا اللفظ الموسيقى ينزل على قلب النازح من وطنه بردا وسلاما).

رعدة خشية وهيبة وخشوع تجلبنى وأنا أقرأ هذه العبارات وأنقلها اليك:

وفى الكتاب عبارات شجتنى وسرت وعمقت مسراها فى وعى وشعورى.. أصغ معى:

(سوف يهرب الفلاحون من قراهم - للمرة كم - لا أدرى - أمام جياة الضرائب ومقارعهم ولفقاتهم وسياطهم - فيضم الكشاف ضرائبهم إلى ضرائب القرية المجاورة أن لم يكن أهلها هم أيضا هاجروا)

لم يكن الرجل مؤرخا جامدا يرصد الحقائق الجامدة بل كان مصريا يكتب فى حنان وولاء ووفاء وحب عميق..

- (جيلة الحياة فى هذا الشعب هى الحضارة نفسها.. فهو، فى شعوب الأرض طرأ، مثال رجل الأستقرار والسلام.. ومع ذلك لم يمنح السلام والأستقرار فى تاريخه إلا قليلا..

أرأيت!!؟

وفى الكتاب قصص..

إقرأ قصة زيارته للمتحف البريطانى..

ان ما نقلته من شواهد ليس بخير ما فى الكتاب وإن كان أصلحها للنقل والإستشهاد ولكن هناك مثلا لفظة رقيقة الإحساس فى موضعها من الصفحة أو السطر ولفظة تحف بها قصة طويلة قبلها هالة ساحرة.. هناك نقط، هناك علامات استفهام فصيحة وهناك علامات تعجب ساحرة وهناك أشياء كثيرة.. النقل يشوهها من ينزع لبنة تروقه من بناء فنى متكامل؟ إن جمالها فى موضعها من البناء كله..

ومن أجمل فصول الكتاب وأشجاها فصل (القيراط الخامس والعشرون) هذا الفصل الذى عثر فيه الدكتور فوزى على حسبه (بسيطه) من صدر الدولة المملوكية فى عهد السلطان المغمور حسام الدين فى أواخر القرن السابع الهجرى (٦٩٧) وتقول هذه الحسبة بأن الروك الحسامى قسم مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا، أربعة للسلطان وعشرة للأمراء والإطلاقات، وعشرة للجند!

ثم يتهدج صوت المؤلف حين تبلغ مرارته حافة الكأس فيقول فى سخرية مصرية ممرورة (قد تتغير أرقام المعادلة، يعدلها الولاة والملوك والسلاطين.. وقد يدخل فى الحسبة الباشا العثمانى والباب العالى، حتى الاستراتيجوس الرومانى والخواجات، وصرة الأراضى المقدسة وغلالها.. وديون الخديوى إسماعيل، ولكنها تظل معادلة صحيحة، طرفها الثانى لا يتغير، فهو هو أربعة وعشرون قيراطا.. وتلك ميزة النظريات الرياضضية الثابتة على ممر الدهور والبساطة والدقة. معادلة الإقتصاد المصرى، المالية المصرية، تدخل فى حكم قوانين الطبيعة: كالنظرية الذرية، وقانون تمدد الغازات، والجاذبية، الأرضية، هى شىء يعادل، فى دقته وثباته حساب درجة تجمد الماء المقطر تحت ضغط جوى واحد).

هل عرفت نصيب الشعب المصرى من خيرات أرضه ونيله وشمسه، السؤال من عند المؤلف الحزين ومنه ايضا الجواب:

أنه القيراط الخامس والعشرون، ومكانه.. مملكة السماء!

وفى هذا الفصل صور تستوقف ولكن أعذبها وأحبها صورة الشعب المصرى فى أحيائه التقليدية: تحت الربع أو الحسينية أو الحنفى.. هناك حيث يباع البسبوسة يرجو جاره أن يحرس

صينيته حتى يذهب ليتوضأ ويصلى في سيدي البيومي، أو في جامع الأشرف برسباي، ويعود الرجل بعد هنيهة متهلل الوجه نظيفه وزبيبة الصلاة، قد زادت سمارة.

أتصور الشعب المصري في تلك العصور، وفي المدن، بائع الحلوى والخراط والسروجي والبزاز والعمار وصانع الخيام. هناك حيث يتحدثون في رقة تلف المعاني في ألفاظ شفاقة فتفهم بالبداهة أو (بالحدافة) كما يحلو لقومنا أن يقولوا فإن متحدثنا وسامعنا على السواء (يفهمها وهي طيارة).. وهناك حيث تتسمح اللغة وتصفو كالنفوس فتفرض في أدب وتعاث في خفة، وتستخف في طيبة مجرد (تريقة).. من أمثال: (يفتح الله) ومعناها: السعر الذي تعرضه غير مقبول. و «صلى عالني» أي فلنبداً في الفصال و «على» «الطلاق» أي لا تصدق كلمة مما سأقول و «يافتاح ياعليم» أي أول القصيدة كفر. وبعدها وياك، وربنا يكفيننا شرك. و «باسم الله» أي تفضل وشاركني لقمتي التي لا تكاد تكفيني، ثم يتشجع عندما ترفض دعوته، فيقول «حلفت عليك» ومعناها: أيها الأريب قد فهمتني و «توكل على الله» ويعنى أغرب عن وجهي «من غير مطرود و «دستور إيه ياعم الله يخليك»، يعنى شبعنا من هذا الكلام وأمثاله.

هذه لغة شعب فيلسوف مسالم يتكلم «بالكناية»

ألا ترى معنى أنها لوحة بالألوان والأضواء والظلال.. لوحة (طعمة) كالشعب الذي تصوره..

وفي الكتاب طرائف لو جاز للمضحكات المبكيات أن تطرف أو تروق.. يصف المؤلف الأتراك رجال الدولة (العلية) فتجىء الصورة كما تعرفهم جفاة غلاظ أردال يتهاكون على المال ويجرون وراء الرشوة ثم يقبلونها مع الغطرسة.

أنا قرأت الكتاب فأضفت إلى عمري أعواماً لا بل حقبا طويلة وتعرفت إلى أحياء وإكتسبت أصدقاء تقدم بهم الزمن ولكني عشت معهم على الصفحات وانفعلت بهم حتى كدت أضافهم محيبة شاكرة مقدرة مكبرة. ففي كتاب سندباد مصرى حييت في إجلال شيخ الإسلام أمين الدين الأقصراني الحنفي الذي دعاه السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري عندما حاول في تجريدته على شاه سوار أن يأخذ من الأوقاف. فلما حضر شيخ الإسلام.. وكان قد تأخر عن الحضور.. ولما سمع هذا الكلام أنكره غاية الإنكار. وقال في الملأ العام من ذاك

المجلس: لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس إلا بوجه شرعى - فإن كان ضروريا فى الدفاع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة وهذا هو دين الله تعالى أن سمعت أجرك على ذلك .. وإن لم تسمع فافعل ما شئت وإذا أراد السلطان أن يفعل شيئا يخالف الشرع فلا يجمعنا .. ثم قام ..

وفى كتاب (سندباد مصرى) لقيت الشيخ رفاعه الطهطاوى المصرى الذى ذهب إلى فرنسا على هامش بعثة لا ليتعلم ولكن ليؤم المصلين فإذا به يعود منها ليؤم المتعلمين ويرأس المترجمين ويبدأ به تطور الفكر المصرى حتى ليلقبه الدكتور حسين فوزى بلقب (باعث النهضة المصرية).

وفى الكتاب ملكات إحداهن مقدونية خليلية تدعى «كليوبطرا» والأخرى مملوكة دخيلة تدعى «شجرة الدر» ولكن أعظمهن قدرا وأشرفهن نسبا وأكرمهن أصلا وأقواهن شخصية إنما هى «حتشبسوت» المصرية الصعيدية سليلة الأسرة المجيدة التى أخرجت أحمس وتوتس وأمينوفيس وأختاتون .. حتشبسوت التى ارتفعت على صيد القلوب وحبك المؤتمرات الصغيرة لتمارس المهنة المصرية القديمة: صناعة الحضارة. فخلفت لنا آثارا عظيمة من أمثال مسلتى الكرنك: القائمة، وهى أعلى المسلات بالكرنك، والنائمة ثم المعبد الصغير الأنيق هناك، المعروف بقاعات الملكة، وهيكل سفينة آمون، والصرح الثامن بالكرنك وأعظم من هذا كله على جلاله، معبدها الكبير بالدير البحرى (رائعة الروائع).

إنها حتشبسوت بنت مصر وملكة مصر ..

صداقات مصرية جدد عهدى بها هذا الكتاب وأيضاً صداقات أجنبية وصلنى بها هذا الكتاب ..

لقد غدوت صديقة للرحالة «فولنيه» الذى أنصف الشعب المصرى من. (على بك الكبير) البروفة الأولى لمحمد على باشا كما يدعوه الدكتور فوزى.

غدوت صديقة للأديب شارل ديديه صاحب كتاب (ليالى القاهرة) الذى دافع عن كره مصر للجندي لأن الجهادية كانت (عملية سطو ضارية) ويمضى ديديه فى وصف الوقائع المثيرة فلا تملك إلا أن تردد كالدكتور فوزى مع جداتنا ..

أماء، وبأمهات الناس، من يعيد إلى ولدى؟

ولدى ..

غدوت صديقة للعلامة أميلينو الذي وصف الجنس المصري بأنه من أعظم الأجناس بشرا وحباً للحياة، وأن المصريين منذ العهود القديمة حتى اليوم- أى حتى أوائل القرن الحالى- أطفال كبار، يحبون البسحة، ويقبلون على المسرات، أهل اجتماع وألفة، ينزعون إلى كل مباحج الحياة الدنيا ومتاعها..

والمصرى- على حد قول اميلينو- لا يكتفى بحقائق الحياة وحدها، مهما كانت مفرحة بهجة، فهو ما فتىء هائما فى خياله بحثا عن الخوارق، وجريا وراء المغالاة. وما إن تحول المصريون إلى المسيحية حتى مزجوا بين عقائدهم.. القديمة وبين دينهم الجديد.. ولم يندوا أساطيرهم العتيقة بل كسوها لباسا مسيحيا، فتحولت ألتهم القديمة وجنتهم إلى ملائكة وقديسين والى آبالسة وشياطين.

غدوت صديقة للانسان المرفه الحس شاتويريان الذى طالع أهرامنا فأدرك بنفاذه أن المصرى (لم يشيد الأهرام لشعوره بالفناء، بل لإيمانه بالبقاء. هذه المدافن لا تمثل ختام حياة يوم، أو بعض يوم، إنما هى معالم الطريق إلى حياة لا تعرف النهاية (انها أبواب الخلود أقيمت على حدود الأزل). غدوت صديقة لصاحب كتاب (فجر الضمير) جيمس هنرى برستيد الذى مد بصره وهو فوق الجبل (جبل الزيتون) بفلسطين فسبقه خياله إلى مصر ويسجل هذا فى كتابه بقوله (وإذا كنا نجلس مطلين على قرية النبى ارميا، حولنا أبصارنا فى اتجاه الجنوب الغربى واخترقنا بخيالنا جبال اليهودية الجرداء، إلى أرض وادى النيل، منبت أول إنسان أدرك قوة المثل الأخلاقية تلك المثل التى قلبت الصفحة الكبرى فى تاريخ التطور البشرى- فتذكرنا أن حكماء المصريين كانوا أول الناس إدراكا لمعنى الشخصية والأخلاق وصدق الإحساس، وذلك قبل أن يولد النبى إدماء بالفى عام).

هذه مصرنا.. لم يكن السندباد المصرى مؤرخا فحسب بل كان فنانا وإنسانا كان فنانا حين يقف بك لينقل لك من تراجم الجبرتى ترجمة واحدة، حيثما اتفق لواحد من المصريين ويقابلها بترجمة واحدة، حيثما اتفق، لواحد من أمراء المماليك، وستحس فخره واعتزازه وهو ينقل الترجمتين فى مقابلة المزهو السعيد المشيد فإن (جميع تراجم الجبرتى بإستثناء طفيف تتخذ صورة شبه واحدة للمصريين، هى الصورة التى قدمها للشيخ الحفناوى، وصورة واحدة للمماليك هو ما تراه فى ترجمة ابواظ بك..)

إقرأ أنت معنا الترجمتين.. بل إنى أنتحى لأخلى بينك وبين أستاذنا الدكتور فوزى.. أنه يقول:

(إفتح التراجم عند أية صفحة: العلم والدراسة والمتون والصلاح والفتاوى والإقراء تلازم المصريين، والحرب والضرب والغدر والقتل والنهب والعودة بالراءوس المقطوعة والجلود المحشوة بو، تجدها دائما فى تراجم المماليك.. العثمانيين..)

تلك هى الصورة الحقة لتاريخ مصر فى عهد المماليك والعثمانيين.. المصريون أهل العلم والمعرفة والحضارة والصناعات والحرف والزراعة والتجارة والأجانب قطاع طرق صلابون نهابون. المصريون يعنون بالبناء والخلق والإبداع، بالفن والصناعة والفكر والعلم.. وغزاتهم الأجانب عنيتهم جمع الأموال وضرب السكة فيما فيه فائدة الولادة والأمراء، والفتن حول السلطة والنفوذ والإستيلاء، على الأرض.

والمؤلف لا يطلق هذا القول إطلاقا بلا شاهد من الأحداث أو بيئة من التاريخ.. إن تقاليد العالم الثبت لا تتخلى عنه فترة. كثيرا ما ينسى حبه وغضبه وسخطه ورضاه ليعلم كلمة الحق وإن رجحت بها كفة الأعداء.

إن بالمؤلف المصرى جراحات من المماليك ولكن روح مصر العادلة السمحة.. روح مصر التى تسرى فيه، حدث به إلى ذكر حسناتهم الماثلة فى الخوانق والمدارس والجموامع والبيمارستانات.. أنهم الأمرون بنسخ الختم المذبة.. الموقفون الخيرات على معاهد الدرس ودور العبادة ومساقى الحيوان.. ومستشفياته، القوامين على صناعات جميلة متقنة سواء فى البرد والطرز أو على النحاس المكفنة بالفضة أو الفضة المكفنة بالذهب والأبنوس المطعم بالعاج، وخشب الورد من ابداع الصانع المصرى المطعم بالأبنوس أو صناعة الخراطين للمشربيات والمنابر، والزجاجين للمشاكى والميناء والفسيفساء.

فنان لا يرى فى النفائس التى كشفت عنها حفائر دهشور مجرد ذهب وزمرد وياقوت ولا زورد- (وإنما هى نماذج لفن حضارة رفيعة، تعنى بالجمال فى الأثاث واللباس والصحاف والأواني، من أية مادة صنعت، حتى تتعجب اليوم بتلك العقود «الفالصور» التى يقتنيها السياح، مع أنها مصنوعة من صفيح وخرز وزجاج وقطع الميناء لا لشيء إلا أنها تقلد، وتحتذى إلهام ذلك الصانع المصرى العجيب.

ثلاثون قرنا من الفن المصرى نجيا برغم الاضطرابات والثورات والغزو الهكسوسى والرزمى الفارسى والحكم المقدونى والرومانى أليست هذه هى الأعجوبة الحقة فى تاريخ الفنون الإنسانية كلها؟

وبعد أن قرأت الكتاب وجدتنى مع صاحبه أقف وقفة الحائر فقد كنت أسير وراءه مسحرة لا أدرى حتى انتهيت معه إلى الذرى ووجدتنى مثله أملا رثنى من هواء الأعالى وأرجع البصر حائرة.. مترددة.. وأنا من عل أشرف على حضارة أربعة آلاف سنة، هى التى جعلت اسم بلادى على كل لسان، منذ قدماء المصريين إلى اليوم. الحضارة التى رفعتنى فى أعين العالم المتمدن قديمه وجديده، هى التى نزلت بى إلى الحضيض عندما اشتبه العالم فى أننى غير جدية بأحد أجدادى الأولين بل تشكك فى شرعية مولدى، عندما عرفنى أقل الناس علما بمجدى الغابر، وأشدهم إنكارا لأرومتى.

أحنى هامتى إجلالا للمؤلف الأصيل الكبير المتواضع وهو يقول وأنا إلى جواره أسمع (لست مستحقا رفعا ولا خفضاء، فقد ولت عصور التفاخر بالحسب والنسب، وصدق الناس أخيرا أن المرء بأصغريه، قلبه ولسانه لا تحكم لى أو على لأن ماضى «البعيد كان مجدا مؤثلا وماضى» القريب كان ذلة وهوانا. أنظرنى حتى تتبين حاضرى، وستعرف أن حرفا واحدا لم أنسه مما بقى من تاريخى الوثنى.. والمسيحى والإسلامى. فليس من طبيعة المصرى أن يتخلى عن تراثه، تالده وطريفه كراكبه وتحفه الغالية عظيمة وحقيه..)

(إن حرفا واحدا لم أنسه مما بقى من تاريخى الوثنى والمسيحى والإسلامى فليس من طبيعة المصرى أن يتخلى عن تراثه، تالده وطريفه).

قولوها معى.. قولوها معه فلا خير فيمن لا يقولها..

هذا الكتاب الذى هو ملحمة للشعب المصرى ومرثية فى أكثر من موضع لما عاناه على مدى الأزمان تخرج من قراءته بعد كل الإنفعالات التى مررت بها خلال العصور مستريحا فى النهاية راحة الوثوق والإطمئنان والإيمان لأن مصر (خرجت من محنتها ورزاياها محتفظة بشخصيتها وطبائعها السمحاء مقبلة دائما على صناعتها الواحدة صناعة الحضارة، برغم كل شىء، وتحت حكم كل إنسان، وضد كل إنسان) لا يفهم قيمتها وقيمتها.

إن الدكتور حسين فوزى يرى أن الجبرتى قد ترك لنا أروع صورة لمصر وأصدق فيما بين نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر وأنا أرى إن الدكتور حسين فوزى أنه ترك لنا أروع صورة لمصر وأصدق عبر القرون على مدى العصور.

\*\*\*

أشهد أنى قرأت الكتاب فأحببت مصر أكثر.. لا.. ليس فى استطاعة الحب أى حب.. لآى شىء.. أن يفوق حبى لمصر الغالية.. إنما أردت أن أقول حنوت عليها بقلبى كله. لا ولا هذا أيضا فحناتى لا يزيد ولا ينقص لأنه فوق طاقة الزيادة أن تضيف إليه وفوق طاقة التقصان أن ينال منه.

ماذا أريد أن أقول؟ قرأت الكتاب فأحببت صاحبه أكثر واحترمته أكثر.. كان فى وعى وضميرى عالما وأديبا فارتفع بعد الكتاب إلى مصاف المتصوفين.. المتصوفين.. الواصلين فى شرعة الوطنية.. كان الكتاب لمصر محرابا والسطور صلاة.. تطهر النفس وتزكيها.. بورك المحراب وبوركت الصلاة.

## مذكراتي في نصف قرن

صاحب هذه المذكرات أحمد شفيق باشا. أقرأ الكتب بالقلم لأنى أعاشها وأعيشها ساعة القراءة وأسجل رؤيتى لتوها، حرصا على بكاراة الإحساس.

وتفرض الدراسة نفسها على قراءتى فألتزم بقراءة الكتاب من أوله ومع ترتيب الفصول ولكنى فى هذا الكتاب بدأت بقراءة القسم التاريخى السياسى منه ووقفت طويلا عند الثورة العرابية باعتبارها رواية شاهد عيان فالمؤلف من رجال السراى -حتى ولو كان منحازا فمهما نحسب النقد العلمى أن يكون شابه الهوى لقرب كاتبها من الحاكم أى الخديوى فى وقته ولكن هذا السبب نفسه عامل توثيقى بما يتيح من مصادر الأحداث وبواطنها على أن المؤلف ذكر ما للحاكم وما عليه بقدر ما تستطيع بشرية الإنسان.. على أن المؤلف لحقه غبن من السراى، يوما فقد فصل من عمله يقول (لما اشتد العسر المالى وتقرر تنازل الأسرة الخديوية عن أملاكها، كان أول من نفذ هذا القرار هو ولى العهد توفيق باشا فتنازل عن تفرانيشه وتقرر الإستغناء عن كثير من الموظفين بها وكنت ضمن الذين أستغنى عنهم فى ٢١ ابريل سنة ١٨٧٩). وان كان عاد إلى السراى فى آخر يونية من العام نفسه.

نسيت عمري وأنا أقرأ الثورة العرابية فبكيت وأحسست عذابات شعبنا وقتئذ إحساسا عميقا كأنى خضتها.. تجرعت غصصا كثيرة والناس الطيبون من أهلنا أصحاب هذا التراب يسبقهم الأجنبى فى طريقهم من مكان إلى مكان.

من حق القارئ ان أعرض الكتاب من أوله.. وهنا يقف المؤلف وقفه عند عصر اسماعيل الذى شاهد جزءا منه. أخذ كثيرا وأعطى كثيرا.

أصلح كثيرا وخرب كثيرا.. يقول المؤلف (كان ثالث ثلاثة من ذوى الفخامة والعظمة والأبهة والإسراف هم السلطان عبدالعزيز والإمبراطور نابليون الثالث، وإسماعيل خديوى مصر.

ومن غريب الإنفاق أن هؤلاء العظماء الثلاثة عاشوا فى عصر واحد تقريبا. فكان بين سيرهم كثير من وجوه الشبه. وكانت بينهم رابطة صداقة ومودة. ثم حكم ثلاثتهم مددا متقاربة وختم كل عهده فى ظروف متشابهة).

والمثل من مصر:

المناسبة: فتح قناة السويس

يقول المؤلف والواقع يؤيده (بقيت هذه الاحتفالات مضرب المثل في الأبهة المقطوعة النظير بما بعث الإمبراطورة أوجيني أن تبرق إلى زوجها الإمبراطور يوم حفلة الإفتتاح تقول له: «وصلت بورسعيد بصحة جيدة. الإستقبال فخم، لم أر في حياتي ما يماثل ذلك»).

وقد أنفق اسماعيل المديون على هذه الإحتفالات مليوناً وأربعمائة ألف جنيه مصرى.

وليت الأمر أقتصر على الداخل بل إن إسماعيل أغدق في الخارج وعلى من لا يعرفهم «زوى بارو باشا الفرنسى وكان رئيس الديوان الأفرنجى فى عهد إسماعيل أن (إسماعيل فى إحدى زيارته لباريس سمع بجمال قصر لأحد أغنياء الباريسيين فأظهر لمحدثه رغبة فى مشاهدة القصر هيأما بالفن الجميل. فلما علم صاحبه بذلك بادر بدعوة الخديوى إلى مأدبة أقامها له. فكانت له فتاة جميلة أعجب بها سموه. وبعد الفراغ من تناول الطعام سأل إسماعيل صاحب القصر عما إذا كان يرغب فى بيعه وعن الثمن الذى يريده فيه. ولم يكن الرجل يود التفريط فى قصره.. ففكر فى الخلاص من هذا المأزق بان طلب لقصره ثمنا باهظا قدره بخمسة ملايين فرنك- راجيا أن يحول ذلك دون رغبة الخديوى فى الشراء -ولكن خاب ظنه. فقد قبل الثمن وأمر باستدعاء كاتب العدل (المخصص لكتابة العقود) ليكتب العقد. فسأل عن اسم البائع وقيده.. ثم سأل عن اسم المشتري وعندئذ أشار اسماعيل بإصبعه إلى ابنة رب الدار قائلا (مدموازيل..). وبذا عاد القصر لابنة صاحبه وغرم اسماعيل ثمنه الباهظ!!) ومع هذا حفل عصره بالنوايع فى العلوم والفنون وبعضهم كانت له شهرة علمية فى تخصصه مثل محمود باشا حمدى الفلكى الذى خطط خريطة مصر الحديثة لأول مرة وقد شهد علماء الفلك الأوربيون بنبوغه فى علمه وذكره فى كتبهم.

أقول لو أن الأمر شورى واستطاع أعلام عصره أن يوجهوا دفة الحكم لما واجه هذه النهاية الدامية التى طوت صفحاته ولكن آفة الحكم الفردى، التسلط.. ولا نجاح هنا بإنشائه مجلس النواب فالمؤلف صاحب المذكرات يروى عن والده أن هذا المجلس عند إجتماعه، دعا السكرتير الأعضاء، أن يقسموا أنفسهم ثلاثة أقسام:

الأول حزب اليمين ويؤيد الحكومة.

الثانى حزب اليسار وهو المعارض له

الثالث حزب الوسط وهو المعتدل

فلم يكن من أعضاء المجلس إلا أن انحازوا جميعا إلى جهة اليمين قائلين وكيف نكون «ضد الحكومة»!

وأنا لم أضحك من هذه القصة.. فإن ظاهرها يخفى حقيقة مؤلمة على العكس تماما مما يبدو من سطحها.. إن النواب الذين قالوا وكيف نكون ضد الحكومة لعلمهم كانوا يسخرون ولا ينافقون.. فما دامت الحكومة لم تجر انتخاباتها فهي صاحبة السلطة بما هي صاحبة التعيين فكيف يخالفونها؟ ولعلمهم أذكاء أيضا إلى الحد الذى توجسوا، معه من التقسيم الذى طرحه سكرتير الحكومة.. وتحسبوا إنه يريد أن يستدرجهم ليعرف المعارضين.

على كل حال، تثبت التجارب فى كل عصر أن الإستبداد يأكل نفسه حتى لو ذوب فى بحر المر قناطير من السكر..

ويأسى القارىء مرة أخرى على حدائق القاهرة. وندع الآن حديقة الأزبكية جانبا فمن حقها أن تستأثر بموضوع كامل واقف الآن عند حى شبرا الذى يكاد يختنق الآن لنقرأ فى الكتاب أن شبرا كانت (بمزارعها النظرة ومناظرها الجميلة، هى المكان المطروق للتبرد والرياضة عادة. وكان يقصد إليها المرتاضون مشاة وركبانا، وكان المار يرى الدواب المظهمة تغدو وتروح. وأحيانا واقفة فى إنتظار أصحابها ممن حضروا إليها للرياضة، مكبلة فى اللجم، صفوفها على جوانب المزارع. كذلك كانت ترى العربات الفخمة تجرها الجياد المظهمة تحمل أفراد العائلة الخديوية ومن يداينها من كبار السراة والأعيان، يتقدم هذه العربات قمشجية (سياس) لإفتتاح الطريق وإتماما لمظاهر الأبهة. وكان يرى بين المنتزهين فخرى باشا ممتطيا جواده الجميل وأمامه (السايس) كما كان يفعل ذلك بعض ذوات العاصمة.

ويظلل شارع شبرا وقتئذ صفوف من شجر الجميز العتيق المزروع من عهد (محمد على باشا) هل فى شبرا الان صف واحد من الأشجار؟

صورة أخرى بين الأمس واليوم.

عندما تحدث الكتاب عن أفرح الأنجال قال (كان كل جهاز من الجهيزات الأربعة، يطاف به في أنحاء المدينة محملاً على عربات تحت حراسه الجند الراكب، تتقدمها فرقة موسيقية إرسالها إلى سراى العروس، وكانت الشوارع التي يمر بها مزدحمة بالجماهير الغفيرة وكذلك. كانت شرفات المنازل والفنادق غاصة بالمتفرجين).

بقي أن نعرف مقتنيات الجهاز الذي يمر بين (الجماهير الغفيرة) دون أن يللمسه أحد.

يقول المؤلف (كان جهاز كل من عروس البرنسين حسين وحسن. وكذلك جهاز البرنسين فاطمه هانم وأمينة هانم. منسقا في ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالي لعرضه على الأنظار. وهو يتكون من أنواع الحلوى المختلفة الأشكال المرصعة بالجواهر والماس. هذا عدا الأواني الذهبية والفضية والمرايا وفناجين القهوة بأظرفها الذهبية المحلاة بالجواهر وأقسام الشبوكات التي من الكهرمان المطوق بالذهب المحلى بالجواهر.

وكما تعرض هذه الجواهر على البسطاء في الطريق تعرض على زوار القصر العالي ترى أين ذهب هذا كله؟ لقد رأيت قصر مجهورات محمد علي في الأسكندرية وأستطيع أن أقول إن ما فيه بالنسبة إلى هذا المذكور في الكتاب عينات منها:

(كان المتبع في طبقات الأغنياء، عند ختان أبنائهم، أن يأخذوا أبناء أصدقائهم لإجراء عملية الختان لهم في منازلهم، ويقيمون بها حتى يتم شفاؤهم.. وبعضهم كان يدعو إلى منزله في هذه المناسبة أبناء الفقراء فتعمل لهم العملية، ويقدم لهم الطعام المناسب وبمناسبة أفرح الأنجال التي تحدثت عنها منذ قليل، يقول الكتاب إن (إسماعيل) دعا تلاميذ جميع المدارس وطلبتها للإشتراك فيها بتناول الطعام، ومشاهدة الألعاب، وسماع الأغاني).

والخديوى توفيق له في الكتاب صورة جالساً القرفصاء أمام قراونه يذوق الطعام قبل أن يقدم إلى الطلبة حتى يطمئن على جودته!

ومن طرائف أفرح الأنجال أن الممثلين بين الفصول كانوا (يخرجون لتناول المرطبات في محل مخصوص، معصوبى الأعين، ويقودهم الأغوات إلى المقصف الموجود داخل الحرم ويفعلون مثل ذلك عند عودتهم لاستئناف التمثيل.

ومن طرائف أفرح الأنجال، زفة العروس وزفة العروس في كل وسط حبيبة ولكن عروس الأمير (كان يصطف الأغوات صفين. ويبد كل واحد «فتيار - أى نجفة» ذو شمعات تعطى ضوءاً

كبيراً، وبين هذين الصنفين تسير العروس في أبهى حلل العرس مسدولاً على وجهها الدواك الذهبى الرفيع، وتكون العروس محلاة بأكثر ما يمكن أن تحتمله من الحلوى والجواهر الكريمة، ويسندها فى مشيتها إثنان من الأعوات، ثم تبدر عندئذ البدره الفضية، التى تحملها إحدى (الكلفوات - أى الدادوات «الدادات») فى كيس كبير.

وعندما تصل العروس إلى غرفة العرش «الكوشة» تجلس على مقعد عال بين أمها وبين الوالده (باشا)

ويكثر التزاحم على الدخول لمشاهدة العروس فى حليها الجميلة بسهولة وهناك تنثر البدره الذهبية ويدلة العروس مرصعة من الرأس إلى القدم بالماس

مرة أخرى أقول: أين هذا كله؟ أى ربح ذهبت بهذا كله؟ حين زرت متحف اللوفر بباريس رأيت جناحاً ضخماً يضم نفائس ملوك فرنسا وأباطرتها.. وعندما زرت قصر الملك بمديريده وهى التى قامت بها ثورة أهلية - رأيت كل شىء فى مكانه.. وأغرب من هذا أنى عندما زرت قصر توب كابي باستامبول رأيت كنوز السلاطين كما هى بل رأيت طبقاً ضخماً من الكريستال قطره نحو ٧٠ سم وعمقه أو ارتفاعه نحو ٤٠ سم مملوءاً بأحجار الزبرجد المفردة وكان من السهل الإختطاف والاعتراف أى رزء حل بمصر!!

إنى لا أحب المتنبى مع فحولته شاعراً، لأنه أساء إليها حين أحقنه كافور، ولكنى مع هذا لا أجد أصدق من بيته فى وصف هذه الحال.

نامت نواظير مصر عن ثعالها      فقد بشمن وماتفى العناقيد

ترك أفراس الأنجال ونأتى إلى الزواج بعامة وهو فى ذلك العصر لا يخلو من الطرائف. يقول المؤلف: (كانت رسومه تتم خفية عن الزوجين، فلا يعلمان عنها شيئاً، وكانت الأسرة هى التى تتولى أمر الخطبة، أو ينيون عنهم الخاطبة دون أن يكون للخطيبين نفسها أية إرادة. بل لقد كان الغلو فى ذلك يصل إلى حد أن بعض أفراد أسرة الخطيب نفسها لا تعرف شيئاً عن خطبة ابنها إلا ما ترويه (الخاطبة) وقد حدث لى ذلك مع أسرة شريفة، فبعد أن إنتخبتنى هذه الأسرة لأكون زوجاً لابنتها، عدل عن ذلك لمجرد رغبة والدتى فى رؤية الفتاة المخطوبة!!

وإذا كان تدفق الخير، واردة في الأفراح لانبساط النفس فتنبسط الكف ثم طبيعة الفرح نفسه وهو يزدهي الإنسان، فإن العجيب أن يروي المؤلف (كان نظام الجنازة بالنسبة للأسر الغنية أن يتقدم الموكب و «الضحايا» من الجماموس أو البقر ثم «الكفاره» وهي عبارة عن جمل يحمل صندوقين «صحارتين» مملوءتين بالخبز، وقد اقتعد غارب الجمل رجل يوزع طول الطريق مما عبت الصناديق من الخبز، كما يتبعه جمل آخر على نفس الصورة لتوزيع التمر الجاف والفاكهة ثم طائفة من عسكر البوليس ركبانا أو مشاة ثم أرباب الطرق المختلفة والمولوية، وقرأ دلائل الخيرات.. وبعد الإتهاء من وصف الموكب الجنائزي يقول (وتنحر الذبائح عند باب القبر عند وصول النعش وتوزع لحومها على الفقراء).

إذن هو الإحسان والعطاء يلزم ويلازم الأفراح والأتراح سواءً بسواء.. حتى الموت لا ينسى المرزوثين الخير.

#### الثورة العراقية

سبقتها ثورة فكرية أنفجرت وفجرت مشاعر النفوس ضد الديون وضد تدخل الأجانب.. ودخل الحلبة أدباء وخطباء ومن وراء هؤلاء جريدة «الطائف» حيث كان يكتب عبدالله النديم وجريدة «المفيد» حيث يكتب حسن افندي الشمسي.

(وانقلبت مصر مسرحاً للخطباء في كل مجتمع وناد حتى في المساجد، ولم يبق مجلس للسمر أو للإحتفال بعرس أو غيرها إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعد إقصائهم عنها وغيرهم. حتى لقد سمعت ان محمد عثمان المغنى الشهير كان إذا سئل في اي فرح تغنى الليلة؟ «أجاب» في الفرح الفلاني مع عبدالله النديم)

واشتغلت مصر بالثورة العراقية وعاشتها في حماس جارف.. كانت الثورة حلم مصر التقليدي بالمخلص بل تجاوز تأثير الثورة والشوار حدود مصر إلى خارجها في كل قطر. يقول المؤلف (شغلت الثورة العراقية أذهان الشرقيين قاطبة ولاسيما الشعب الهندي، حتى علمنا أن السفارة الإنجليزية في الآستانة، ابتاعت من صاحب جريدة (الجوانب) التي كانت تصدر يومئذ باللغة العربية، مليون نسخة من العدد الذي فسرت فيه ترجمة الإرادة السلطانية، إلتى أعلن فيها عصيان عرابي، لكي توزعها في الهند وتستعين بالأثر الذي تحدثه على إخماد التشيع للعراقيين، وكانت قد اضطرت هناك بشكل ينذر إجلترا بشر العواقب.

وهكذا اجتمع على عرابي الإنجليز وديلسبس ورشوة الانجليز، البدو، ومنشورات الخديوى يقول المؤلف.

(وما ساعد على نجاح الإنجليز، أن الجناب الخديوى عين محمد سلطان باشا (رئيس مجلس النواب مندوبا خديويا، وبمعيته بعض رجال سموه لدى الجنرال ولسلى، وناط به نشر الدعوة، وخصوصا بين العرب، لمساعدة الجيش الإنجليزى الذى يحارب العربيين باسم الخديوى. أضف إلى ذلك الهبات المالية التى كان الإنجليز يقدونها على العريان. وخصوصا الذين قيدوا منهم بقلم الإستعلامات الانجليزى).

وتوالت الأحداث سراعاً ودفننا الدم والأيام وعلى أرض التل الكبير وحده بل على امتداد سبعين عاما تساقط فيها الشهداء شهيدا وراء شهيد.  
وما أجل المفدى والمفتدى.

وإن المرء ليقف حائرا أمام شخصية توفيق.. إن صورته فى هذا الكتاب تختلف إختلافا كبيرا بين البداية والنهاية كانت بدايته واعدة. سأله مراسل التيمس عن الخطة التى ينوى اتباعها فى مصر فقال له فى وضوح وحسم إنه لا يرغب فى عودة النظار الأجانب وإنه معتزم السير فى الإصلاح بأمانة وإخلاص وفى جو خال من الدسائس وأن أوربا يجب عليها إن تعطى مصر الوقت الكافى لبيان خبرتها وحسن إدارتها، وأن لا مانع مع ذلك من استخدام الأوربيين، كمرشدين لا مسيطرين، وكان مما قاله للمراسل فى شأن رجوع الهيمنة الأجنبية ألا فلتقطع أسباب المخادعة والمناظرة والإنتقام.

وفى هذا الرد حكمة وكياسة وحسم ودلالة أخرى يستشفها التحليل من خطابه تكليف رياض باشا بتشكيل الوزارة (النظارة) لم أقصد بترأسى مجلس النظار أن أعيد (السطوة الشخصية.. وإنما راعيت فى ذلك ضرورة الحال. وصلت مع الرغبة فى تقريب علاقاتى بأعضاء النظارة فلم يكن فى خاطرى عزم نهائى، خصوصا فيما يفاير المبدأ الذى اتخذته يوم ولايتى وهو أن أحكم مع مجلس النظار، وبمجلس النظار).

وهو منحنى عاقل رشيد

فى بدايته استهل بزيارة الفيوم فدعاه أهل الصعيد لى الدعوة وزار أقاليم الصعيد أقلما أقلما وفى كل أقليم كان يؤدى الصلوات مع الناس ويوزع الصدقات ويوزر البيوتات الكبيرة وكبار رجال المدينة ومدير المدينة فى بيته فى بساطه وتواضع. هل هذا الذى قال لعرابى فيما بعد «أنتم عبيد أحساناتنا»!!

كان يدعو فى زيارته مستقبله إلى موآده. كان يطوف المدينة راكبا جواده بلا استحكامات.. بلا مدرعات بلا شل مرور يسير والطبيون من أهلنا فى المدن يحيطونه بشاعرهم وليس بمستغرب فقد أحاطوا اسماعيل على الرغم من الديون وما نجم عنها فى طريقه إلى المحطة بعد خلعه من العرش. إنها مصر النبيلة.

كان توفيق فى بدايته يبنى المساجد على نفقته الخاصة. ويشجع التعليم إلى الحد الذى يشهد الإمتحانات ويمنح الجوائز كان ينشئ المدارس ويدفع نفقات تعليم بعض التلاميذ.

حدد توفيق احساسا منه بضائقة البلد، المخصصات الخديوية ثم اختزلها وضغطها. يقول المؤلف (كان أول عمل أفتتح به عهده تنظيم مخصصات الأسرة الخديوية. اذ كانت مراتب أفرادها فى عهد إسماعيل غير محدودة ولا معلومة حيث كانت الخزانة تحت تصرفه، يأخذ منها ما شاء ويهب منها لمن يشاء. فرأى الخديوى توفيق أن يحدد هذه المراتب وأخذ مجلس النظار بناء على هذا رأى يعين هذه الرواتب، ثم عاد توفيق وتنازل عن ٢٠,٠٠٠ عشرين ألف جنيه من مرتبه لإضافتها إلى مرتب والده ثم أمر بإلغاء المرتب الخاص بوالده وحرمه فاقصد بذلك خمسة وخمسين ألفا).

وهنا يتجسد عنصر المشاركة وعنصر القدوة الحقيقية.

هذا حين قرر زيادة الميزانية المخصصة للتعليم إلى الضعف. وصدرت لائحة بتنظيم أعمال الرى وتوسيع نطاقها وروجعت القوانين المصرية.. ولكنه استسلم لدسائس القصر وشايات ممثلى الدول الأجنبية الذين كانوا يخشون الوطنيين وحركتهم الفكرية ولم يفتن إلى أن هؤلاء المنتفعين، أصحاب غرض ومصالح شخصية.. لقد آفاق أخيرا ولكن كان الوقت متأخرا.

يحكى المؤلف أنه بعد موقعة التل الكبير المشنومة سعى إليه المترلفون والأجانب لهنته ولكن توفيق بكى. يقول المؤلف (أما توفيق فعلى الرغم من أنه كان يعلم أن إنكسار العرابيين يؤول إلى

توطيد عرشه، فقد عز عليه أن يتم له ذلك على يد الأجانب وعلى حساب بلاده ومذلة شعبه. وقد كان سموه من الأمراء الذين نصبو نفوسهم على عروش وطيدة الأركان، ولكن مدعمة بحب الرعية وولائها وليس على عروش واهية قائمة على رءوس الأسنة وشفة السيوف وإذا كان الإرتياح الذي بدأ على محياه بانهزام العرايين مشويا بالحزن وكانت الدموع التي تساقطت من عينيه ساعة ورود النبأ معبرة عن شعوره أصدق تعبير).

لقد خانهُ التوفيق كما خان عرابي كان باستطاعتها أن يتلاقيا في طريق الإصلاح وإقالة عشرة البلد وفي حياته لهما حياة وكرامة..

ثم ذهب توفيق وعرابي بعد أن تجرعا غصصا شتى ولكن مصر في النهاية هي التي دفعت الثمن.. مصر التي لم تبرأ جراحها إلا بعد سبعين عاما.

ولكنها في النهاية هي الباقية.

## قضايا التاريخ الكبرى

المؤلف الأستاذ محمد عبدالله عنان المحامى

والكتاب لون مستحدث من الآداب التاريخية القضائية.

أو كما يقول الدكتور محمد حسين هيكمل فى مقدمته: (وصف للوقائع، فيه التدقيق التاريخى المستند إلى الوثيقة المؤكدة الثبوت، وتقدير صالح لمواقف الإتهام والدفاع مأخوذ فيه بميول أهل العصر الذى وقعت الحادثة فيه أكثر من الأخذ بقواعد العدالة السامية المطلقة التى لم تهبط إلى مستوى الحياة الإنسانية يوماً من الأيام والتى ستظل أملا كبيرا يستكن فى أفئدة العظماء، البائسين بعظمتهم، الذين يفنون حياتهم سعياً وراء استنزال هذه العدالة من مقرها الأسمى فتأبى أن تهبط إلى حيث كانت الجريمة أساس الحياة بدء ظهورها).

استهل الكتاب بمحاكمة «مارى ستوارت» ولم تكن محاكمة ملكة ايقوسيا إلا مهزلة قضائية بل كانت مكيدة شائنة دبرتها لها اليزابيث ابنة عمها، ومالآها وزراؤها لعوامل سياسية ودينية.. وكان ذلك ١٥٨٧م.

قال فولتير عن هذه القضية (لم يشهد التاريخ محكمة أبعد عن الإختصاص الذى تدعى، وإجراءات أشد بطلانا، فقد قدمت إليها بصور بسيطة من رسائل، ولم تقدم إليها الإصول قط، وأخذت من المتهمه بشهادة أمينها مع أنها لم تواجه بهما قط، وزعمت أنها ظفرت بالدليل القاطع من اعتراف ثلاثة من متهمين أعدموا وكان فى الاستطاعة تأجيل إعدامهم حتى يواجهوا بالمتهمه. ولو اتبعت أبسط الإجراءات التى تقضى العدالة باتباعها نحو أقل الناس، وإذا كانت الأدلة قد نهضت على أن مارى استوارت تبحث عن المساعدة وعن المنتقمين، فقد كان من المتعذر اعتبارها مجرمة.

«لم يكن لإيزابيث عليها سوى قضاء القوى على الضعيف المنكوب».

ويقول السير والتر سكوت: (إن الأدلة التى قدمت على إتهام ملكة ايقوسيا لم يكن فيها ما يكفى لإزهاق حياة أحسن المجرمين، ومع ذلك فقد كان للجنة من القسوة والنذالة ما أعتبرت معه مارى مجرمة، وصادق البرلمان الإنجليزى على ذلك الحكم الظالم».

وهكذا نفذ حكم الإعدام فى ملكة هـ فى الوقت نفسه ابنة عم الملكة الحاكمة فى ذلك الوقت.. لقد كتبت إليها قبل النهاية خطابا يذيب الحديد ويفتت الصخر ولكن يبدو أن الظلم ظلام لاشية فيه تشبه النور.

كتبت مارى استوارت ملكة نيقوسيا الى إليزابيث ملكة إنجلترا فى القرن السابع عشر تقول:  
أطلب إليك بعد أن يروى أعدائى ظمأهم من دمي البرىء أن تسمحى إلى خدمى المحزونين أن يحملوا جميعا جثتى لتتوى فى أرض فرنسا.

ولعلك لا تأبين على ذلك الطلب الأخير فتسمحين على الأقل بحرية الأبدية إلى جسد فارقته الروح خصوصا وإنهما حين اجتماعهما لم ينعما قط بالحرية والراحة.. وأريد أن أعرف ردك الأخير على طلبى الأخير).

ورفضت إليزابيث واستدعت الكونت أوف كنت والكونت شروزبورى وطلبت إليهما إبلاغ غريميتها مارى استوارت، حكم الإعدام، الذى تسلمته هادئة وكانت مريضة فتمددت فوق فراشها بعد أن إرتدت خير ملابسها ولم تنس أن تستحضر منديلا موشى بالذهب لتحجب به عينيها فى اللحظة الأخيرة.. واستغرقت فى صلاة جادة.. حتى دوت أرجاء القصر بصلصلة السلاح وغصت ساحته بجماعة كبيرة من الفرسان. وكان الصبح قد تنفس، فنهضت الملكة بعد أن سلخت ليلها ساهرة.. ثم دخلت إلى غرفة الصلاة وجثت تصلى.. فلم تلبث حتى قرع الباب بعنف، وأتى حاكم المدينة ليخطرها بأن الساعة قد أزفت، فنهضت قاتلة: هيا.

وتبعت الملكة الشابة، الحاكم راجية منه أن يساعدها على السير.

ثم اخترقت الساحة الكبرى يحفها ذلك الجلال الذى كان لها طبيعة لازمة وهى تجيل فى الحضور نظرات وديعة هادئة.. وإذ تقدم السير «أمياس بوليت» ليساعدها على اجتياز السلم قالت له: شكرا لهذه الرقة ياسير أمياس.. أتراها كانت جادة أم كانت تسخر.. ممن يسمى ويذبح.

وتقدم إليها قسيس بدلا من قسيسها الذى طلبته مرارا.. حتى هذا الطلب رفض!! أى تنكيل وأى قسوة.

أخذ القسيس الرسمى يعظها فى لهجة عنيفة فطلبت إليه أن ينسحب وأفهمته أنها ترغب عن وعظه وأخذت هـ تصلى بخشوع وحرارة فغلب الانفعال على الحاضرين.

ثم دنا منها الجلاد لينزع بعض ثيابها، فأفهمته أنها ستولى ذلك بنفسها وساعدتها وصيقتها.

وأمامها جثا الجلادان وطلبا إليها طبقا للتقاليد الإنجليزية أن تصفح عنهما لإعدامهما إياها فأجابتهما: (إني أصفح عنكما من كل قلبى لأنكما ستضعان حدا لكل آلامى).

ولبثت ماري استيوارت جالسة في مكانها لإعتقادها أن رأسها سيقطع بالسيف إتباعا لما تقضى به إمتيازات الأشراف في مثل هذه الحال ولكن الجلاد جعلها تجشو، وتضع رأسها فوق النطع، ثم أشهر فأسه!!!!

ورفع الكونت شروز بوري (ليت حرف الزين ترفع عنه النقطة) عصاه ليؤذن الجلاد بالضرب فهوت فأس الجلاد وارتجفت يده من نحيب الحاضرين من موظفى قصرها.. ولم تسقط الرأس إلا بعد الضربة الثالثة! فرفعها حيثنذ إلى الجمع المحتشد وصاح كالعادة: «أدام الله الملكة إليزابيث»!!!

يفعل هذا الأوربيون الذين يكونون جمعيات الرفق بالحيوان والذين يتظاهرون اليوم بالرفأة على الدجاج من الذبح ثم يخنقونه بطريقتهم.

إذا استثنينا الحجاج فى الدولة الأموية.. والسفاح والمنصور فى الدولة العباسية وسليم الأول العثمانى الذى شنق طومان باى ريبب مصر على باب زويلة، لا نجد فى الإسلام وفى أوج نفوذه هذه القسوة.

وحتى هذه القلة التى ذكرتها لم يقتل أحدها، غريمه، بالفأس!!!

إنى مصرية لا أمت إلى ماري ستيوارت بصللة ولم أرها بالطبع ولكنى أحس بالدوار ودموعى تنهمر.. إنسانة.

ولم يمض اثنا عشر عاما حتى تفوقت إيطاليا على إنجلترا فى هذه الروائع الدموية فوقعت فى روما سلسلة من الجرائم والخيانات الشائنة من خروج على قوانين الطبيعة والدين وإنتهاك حرمت الأخلاق والإنسانية.

أقرأ فى الكتاب فصل (بياتريس) ١٥٩٩.

وإلى جانب هذه النماذج الشائهة ارتفع في فرنسا نموذج يشرف به الكاتب والإنسان.. إنه فولتير الذى كتب فى آخر أيامه رسالة عنونها (الدفاع عن المظلومين) لقد جند فولتير نفسه وقلمه عندما نفى (بيير كالا) للدفاع عنه لإعتقاده أنه مظلوم.. يقول فولتير (لماذا يُقضى بنفيه إذا كان بريئا، ولم يكتفى بالنفى إذا كان مجرما) وفى قوله هذا سخريه لا تخفى.

لم يقتنع فولتير بالحكم على (كالا) فأخذ يجمع الوثائق وأوراق التحقيقات والمحكمة من تولوز وكتب مذكرة ببيان رائع بدأها بسرد تاريخ أسرة كالا بأسلوب روائى مؤثر واستطاع أن يسبغ على المسألة صبغة وطنية وأن يجعل منها مشكلة كبيرة حتى اعتقد سواد المفكرين عندئذ سواء أنصاره وخصومه أن شرف فرنسا أصبح يقضى بإعادة النظر فى حكم تولوز فيما أن ينقض وإما أن يؤيد.

وقد كللت جهود الفيلسوف بالظفر فقضت لجنة النقض بقبول الإلتماس شكلا ثم قضى مجلس الملك بنقض الحكم.

وفى ٩ مارس سنة ١٧٦٥ أعلن برلمان باريس (إعادة إعتبار) الأب كالا وبكى فولتير من الفرح.

وبكت العدالة من زهور الانتصار

وبكيت أنا هذه المرة من اعتزاز بضمير الكاتب وهو ضمير أمته.. إن الكاتب موقف..

وفى الكتاب قصة تزخر بالمتناقضات.. إنها قصة (مارى انطوانيت) سألت مارى تريز ملكة النمسا ابنتها الجميلة التى لم تتجاوز الرابعة عشرة: أى شعب تطمح نفسك إلى حكمه؟ فأجابتها أريد أن أحكم الشعب الفرنسى الذى حكمه هنرى الرابع ولويس الرابع عشر.

فى ذلك الوقت كان الملك لويس الخامس عشر يفكر فى محالفة النمسا لتكون مع فرنسا جبهة ضد روسيا فلم ير الملك العجوز وسيلة لتحقيق ذلك خيرا من تزويج حفيده وولى عهده من الأميرة مارى انطوانيت واستشار سفيره فى النمسا المركيز ديرفور فى شأن هذا القران فبعث تقريرا جاء فيه:

إنها أميرة كاملة سواء من وجهة الكمال الخلقى والمعنوى، أو جمال المحيا والقدر.. وهى ذات ذكاء خارق وخلال رفيعة.. طروب مبتهجة، تحب أن ترضى الناس، وتترفق فى محادثة كل إنسان، ولها أبدع المزايا التى يمكن أن تؤكد سعادة الزوج.

وأعلنت الخطبة. وسافرت ماري انطوانيت إلى فرنسا وسارت في موكب ملكي بين هتاف الشعب وعزف الموسيقى وبين الأزهير والشذى.

وعقد القران واستمرت الحفلات والمراقص أيام عديدة وكتبت الأميرة الجميلة إلى أمها الملكة ماري تريزا (لا أستطيع يا أمي العزيزة أن أصف لك مظاهر السرور والعطف التي أغدقت علينا.. وقد صافحنا الشعب بالأيدى وهو من بواعث السرور الجم فليس أنفس من هذا الحب.. لقد شعرت بهذا ولن أنساه قط).

ولكنها نسيت أشياء وأشياء.

يقول المؤلف: (كان ذهنها بطبيعته قويا قاهرا، ولكن كانت تنقصها المعارف العامة الراسخة، وينقصها العزم المستنير الثابت الذي تستلزمه مهام الحكم.

وكانت ذات شغف بالرياسة دون خبرة بمزاوتها، وذات ذكاء ينقصه كل فهم لظواهر السياسة والإجتماع.

وكانت نزعاتها قوية ولكن سطحية جدا، وأوامرها التي تلقيها دون أن تزن أو تقدر عواقبها أشبه بأهراء قاهرة لحساء وافرة التيه.

بل كانت القوة عندها، قبل كل شيء ترضية للكبرياء والتعالى فكان يسرها أن تكون قوية لتمتن على أصدقائها وتنكل بأعدائها.. ولم تكن سياستها تنفذ إلى أبعد من نزعات فؤادها، فكل مقاومة لأهوائها تثيرها وتسخطها، وتدفعها إلى التشدد في تحقيق فكرتها وإدراك غايتها، وتفقدتها كل شعور بالعدالة وحسن التقدير).

وعلى العكس كان لويس السادس عشر.. كان خبيرا بالمواقف السياسية والاجتماعية غير أن ضعف عزيمته وشديد ترده، وطاعته العمياء لزوجته، كانت تذهب كل قيمة لخلاله ومزاياه

وقد كان على جانب عظيم من الرفق والأمانة والنشاط ولكنه كان يؤثر السكينة والوفاق الزوجي على أية فكرة صائبة يراها، أو أى إجراء حكيم يحسن اتخاذها وبينما كان يتفق أوقاته في العزلة، أو في صناعاته التي كان مولعا بها، كالبناء والحدادة كانت زوجه تتولى الحكم دونه وتفقد ضروبا شائنة من الإيثار والعطف وتبذر المال دون حساب في نفقات جنونية وفوق موائد الميسر

وترفع وزراء وتخفض آخرين وتعزل وتولى وتنهى وتأمّر وتفتن في صنوف اللهو الذي غدا أول مهام البلاط.

وجاءت النهاية الطبيعية والمحتمة.

وشهدت مقتل زوجها ثم أنتزع منها ابنها ولى العهد وسجنت وجردت في سجنها من كل أسباب الراحة بل (لم يبق لها من ملابسها سوى ثوبين أحدهما أبيض والآخر أسود وقد بلى كلاهما وتمزق).

وقد غدت ماري انتوانيت في ذلك الحين فكرة لا تعرف، غدت شبحاً هزيلة سقيماً شاحباً، وغدا شعرها الأشقر البديع أبيض كالثلج.

وحين دخل عليها الجلاد، السجن أوثق يديها وقص شعرها ذلك الشعر الذي طالما تاهت به أيام عزها والذي بيضته الخطوب قبل الأوان.

وحين سقط رأسها المضرج بدمه حملت جثتها الهامدة مع جثث أخرى إلى مقبرة المادلين وظلت ملقاة في العراء زهاء أسبوعين حتى دفنها أحد الحفارين في ركن مجهول من تلك المقبرة.

وفي ذلك يقول القونس دي لامارتين في كتابه (تاريخ الجيرونديين)

وهكذا زهقت تلك الملكة الطائشة في السعادة، السامية في البأساء، الثابتة فوق النطع، ومهما كان من رأى التاريخ فسوف يذرف دموعاً خالدة فوق هذا النطع.

أمرأة بآتمر الجميع بها ويدعوها شعبها لترقى عرشه ثم يظن عليها حتى بقبر تنوى فيه.

\*\*\*

وهكذا الحياة والناس

كم في التاريخ من فظائع.. وكم فيه من روائع

والفصل بينهما قراءة التاريخ ووعيه واستيعابه والاستفادة من أحكامه وحكمته.. من عبرته وكلمته التي تكون عادة فصل الخطاب.

كم مجدّ عظماء أوفياء، وكم ندد بآخرين

والذكي الأملعي هو الذي يستوعب المعنى ويستقرىء السطور والعصور.

## أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى

ألف هذا الكتاب المستشرق الألماني جورج يعقوب وترجمه بتصرف الدكتور فؤاد حسين الذى يقول إن المؤلف لاقى خصومات شديدة من المستعمرين أولاً، الذين كان جل همهم تحطيم الشرق مادياً وروحياً، ثم من أنصار الدراسات القديمة أعنى المدرسة الكلاسيكية التى كانت تشيد بمجد اليونان وترجع كل عوامل الرقى الأوروبى إلى اليونان واليونانيين. وقد نجحت هذه المدرسة سياسياً فحررت اليونان من تركيا وجمعت الشعوب الأوربية على هدف واحد ألا وهو وجوب التعاون سوياً والوقوف معاً فى وجه الشرق والشرقيين. وقد ظهرت آثار تلك المدرسة فى أوائل القرن التاسع عشر وفى أوروباً لمحمد على بالمرصاد وفى خلق المسألة الشرقية.

والحقيقة أنى أجد نفسى أمام كتاب يستحق دراستين لا واحدة:

دراسة لكتاب

ودراسة لمؤلفه. فمؤلف هذا الكتاب طراز نادر فى طاقات القدرة على:

التعلم.. على العطاء.. على الإنصاف والانتصاف.

درس المؤلف علوماً.. وأدباً.. وتعلم عدة لغات وبحث فيها وترجم عنها.

درس المؤلف التجارة العربية وألف فيها كتابين. ودرس المؤلف نبات الشرق وحيوانه دراسة

دقيقة حتى قال المستشرق (فلهوزن) مرة:

يجب على حكومتنا الألمانية أن تقيم حديقتين لحيوان الشرق ونباته وتعين «جورج يعقوب»

مديراً لهما!

كتب المؤلف الكتب عن جغرافى العرب وشعرائهم وحياة البدو فى العصر الجاهلى،

والمعلقات، ولامية العرب وترجمها إلى الألمانية كما درسها دراسة مقارنة وذكر جميع المراجع التى

تعرضت لها.

ومن العجيب أنه عنى بتبسيط قواعد النحو العربي والذي نشره عام ١٩٠٨.

درس التوراه وقارن نشيد الإنشاد بالشعر العربي. أهتم بالمسرح العربي واستطاع بعد جهد عظيم كلفه دراسة السنسكريتية والصينية تأريخ هذا الفن المسرحي المعروف بخيال الظل وسافر إلى تركيا جريا وراء هذا الفن حيث كان يعرض هناك في شهر رمضان.

وبالطبع درس التركية بل امتدت أسفاره شرقا إلى الصين واليابان، وغربا حتى ايسلندة حتى تم له العثور على كثير من المسرحيات العربية التي ألفت خصيصا لهذا النوع من التمثيل. واهتدى إلى شخصية محمد بن دانيال.

واتفق سنة ١٩٣٠ مع مستشرق آخر وهو (بول كالا) على إصدار مجموعة من الكتب حول هذا اللون من الأدب العربي، وقد تم لهما هذا، ولكن كتاب جورج يعقوب عن خيال الظل يعتبر الوحيد والأول من نوعه.

وكما ألفت في العربية ألفت بالتركية كثيرا فتناول الشعب التركي وآدابه قديمها وحديثها وعن بدراسة الدين الإسلامي وأثره في الشعب التركي فألف في الدراويش والبكتشية.

كما نشر كثيرا من الوثائق التركية القديمة خاصة ما يتصل منها بتاريخ المجر.

درس المستشرق «جورج يعقوب» الفارسية

ودرس من خلالها التصوف الإسلامي كما درس «حافظ» و«نظامي» وترجم إلى الألمانية الكثير من القطع الثرية الفارسية في بحثه عن ناصر الدين شاه ورحلته إلى كربلاء.

ومن الطريف أنه اهتم أيضا بالسجاد وتاريخه.

يكفى أنه أستاذ «أتوليمان» الذي عرفته الجامعة المصرية في عهدها الأهلي والحكومي أستاذا، ومجمع اللغة العربية عضوا متميزا وممتازا.

ومن حظي أنني في كلية الآداب درست على ليمان علم اللهجات. وكان الدكتور طه حسين في آخريات سنه في ذلك الوقت ولكنه يحرص على أن يحضر إلى كلية الآداب ويحضر معنا محاضرات د. ليمان. وكان الدكتور طه حسين يأبى أن يجلس على كرسي خاص. يصبر على أن

يجلس معنا فى مقاعد المدرج.. ويقول وهو الذى كان يوما وزيرا للمعارف إن ليتمان أستاذى ومهما وليت من المناصب فإن من حقه ومن واجبي أن أظل أجلس منه مجلس التلميذ من الأستاذ.

وكان درسا رائعا لنا نحن تلاميذ طه حسين والعقاد والزيات وأحمد أمين واخوان هذا الطراز.

ويقف «جورج يعقوب» وقفه طويلة عند اختراع الهند الأرقام التسعة ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩ ولكنه عند «الصفير» يقول:

أما «الصفير» فلم يجار بقية الأعداد فى تطورها وسلك طريقه الخاص. وهذه الخاصية تعتبر بحق من أحسن ما اهتدى إليه العقل البشرى، هى من إختراع الشرق، وقد مرت بأدوار هامة فى تاريخ الثقافة البشرية. فالشابت أن الغرب لم يعرف الصفير قبل القرن الثانى عشر الميلادى بينما تحدثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه فى القرن الثامن وكانوا يسمونه حلقة.

تكلم عن أثر الشرق فى الورق والطباعة والمواصلات والبوصلة. والحمام الزاجل والعربة.

سجل للشرق أن الغرب أخذ عنه فنونه الزخرفية أو التطبيقية من أقمشة وسجاد والخزف ثم الخزف ذى البريق المعدنى وفنون العمارة وعن تأثر الفن القوطى بالشرق وعن أثر الإسلام بالذات فى فن الرسم الأوربى.

وسجل للصين أن المسرح الأوربى فى القرن الثامن عشر تأثر بالفن الصينى فأخذ عنه النوع الغنائى التمثيلى المعروف بالأوبريت.

وأخذ الغرب عن الشرق لعبة الشطرنج والطاولة التركىة والزرد الفارسية

يقول المستشرق جورج يعقوب:

ولولا تحريم الإسلام الخمر ما انتشرت القهوة فى العالم الإسلامى وانتقلت إلى أوروبا وقضت فى ألمانيا على مشروب الألمان القديم (البوطة المعروفة باسم هرز براى).

واللفظة العربية القديمة (قهوة) تدل أصلا على النبيذ.

ومن الطريف قوله:

ومنافس القهوة هو الشاي وقد أرسلته الصين إلى أوروبا في القرن السابع عشر.. وقد أثر هذا المشروب ذو الرائحة الطيبة في الثقافة والمجتمع والإقتصاد والعلاقة بين الشرق والغرب تأثيرا بليغا ويجب ألا ننسى الشاي وضريبة إستيراده التي دفعت أمريكا إلى إعلان الحرب ضد إنجلترا والحصول على استقلالها.

أخذ الغرب عن الشرق: النخلة وعممها بعد إحضار عبدالرحمن الأول نخلة في القرن الثامن الميلادي من الشام إلى أسبانيا وأنشد فيها بيتيه المشهورين:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة      تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل  
فقلت شيبه في التغرب والنوى      وطول التنائي عن بني وعن أهلى

أثر الشرق أيضا، بمناسبة النخلة- في حدائق أوروبا وحقولها وطرقها وشوارعها حيث تقوم على جوانبها أشجار الكستناء البرية، وفي الخريف تخرج ثمارها الوضاءة الجميلة. فقد جلب هذه الشجرة وغيرها من مختلف الأشجار والأزهار، الأتراك عند تقدمهم من آسيا إلى أوروبا.

وأخذت أوروبا عن مصر فيما أخذته عن الشرق صناعة التفريخ فقد تحدث صاحب كتاب اسفار (ريتر) عن رحلة قام بها إلى مصر سنة ١٤٦٠ م قال :

وغير بابلون نجد مصر القديمة وهي مدينة توجد بها معامل كثيرة للتفريخ، وذلك بوضع البيض في أفران ذات حرارة خاصة وبعد مضي زمن تفقس الكتاكيت وتعرض للبيع.. والخبر نفسه يذكره (جرىملز هوزن)

وفي القرن الثامن عشر نجد (أدلينج) يكتب مقالا عن الحمام الزاجل يعترف فيه أن الشرق سبق الغرب في استخدامه والواقع أن مصر عرفته قبل أوروبا بما لا يقل عن ألف عام هذا قليل من كثير مما جاء في هذا الكتاب.

## مقدمة

### كتاب (قيم عظيمة في حضارتنا القديمة)

ككل شىء عظيم خالد، الحضارة المصرية.  
يكتب فيها، وعنهما، الكاتبون جيلا وراء جيل ، ويظل في أعماقها، وظاهرها كثير يرويه، نهر  
دافق يقول.

وليس نهرا كالنيل يروى ويروى تاريخ التاريخ على أرض صنعت النهار.. وصنعت الإنسان  
وكانت صناعاتها الكبرى، وإبداعاتها الكبرى، وعطاءاتها الكبرى:  
الحضارة

حضارة باتعة.. رائعة.. مبدعة.. ممتعة..

يتقدما عداتها فتطور أكثر لأن الصدق باق.

ويتغنى بها بثاتها ومعهم عشاقها حتى من الغرباء فتشرق إشراقة  
وجه الحبيب رأى نفسه فى مرآة حبيبه.

\*\*\*

بداية أقول ألف هذا الكتاب : الأستاذ محمد العزب موسى

قرأت الكتاب لأكتب مقدمة له فسرقنى من نفسى وكدت أفرغ منه، ولم أكتب بعد، سطرًا  
واحداً.

وأعدت قراءته فوجدت جديدا على القارئ العام أو السواد الأعظم على الأقل.

بل وجدت جديدا على أصحاب التخصصات الأخرى. من هذا، أبعاد قصة فرعون موسى.  
وهنا أستطيع أن أضيف إليها لأهميتها.

قد يعرف خاصة الخاصة أن الأمم لا تقاس بفرد ولو كان فرعون مصر وأدع جانباً أن فرعون  
موسى برأه واحد من كبار رجال الدين هو الامام محيى الدين بن عربى الذى يقول فى كتابه

«فصوص الحكم»: (بإيمان فرعون ايماننا لازما، وأنه لقي ربه طاهر امطهرا، سالما من العيب، بريثا من الذنب).

وظاهره فى هذا الإمام جلال الدين الدوانى فى رسالته الخطية الموجودة بدار الكتب، مستندين إلى الآية الكريمة:

﴿آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين﴾ سورة يس آية ٩٠  
وجعله ابن عربى آية على عنايته سبحانه لمن يشاء حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى.  
﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾.  
مرة أخرى أقول أو:

أدع جانباً أنه إستشار قومه وعمل بنصيحتهم وأن ما حز فى نفسه، المفاجأة القاسية التى عبر عنها بقوله (آمتتم به قبل أن آذن لكم؟)  
حتى بروتوكول تحكيم تفكير ملك سليل الملوك.  
أدع جانباً، أنه ما من أمة آمنت كلها أو حادت كلها عن الإيمان.  
أدع جانباً، أن والد ابراهيم النبى، قد كفر  
أدع جانباً أن فرعون موسى، بشر..  
موسى فى نظره، الطفل الذى وجدوه على شاطئ النيل مجهول الأب والأم  
رباه فى قصره وعلمه علم مصر.. حتى السحر تعلمه فى أهناسيا  
من أعمال بنى سويق.

هل من طبيعة البشر أو طبيعة الأشياء أن يصدق فرعون بكل هيله وهيلمانه، وللهولة الأولى، داعياً، هوريبب قصره؟ أضف إلى هذا أن فى نفسه، منه، ما فيها، بعد أن قتل أحد المصريين.  
وقد كذبت قريش -إلا قلة قليلة- بعد أن قطعت الإنسانية من عمر الزمن دهوراً بعده، الزكى السرى الصادق الأمين وهو الذؤابة منها شرفاً ومحتداً؟  
لم يكن عند قريش عذر عصبية الجنس أو عقدة النار القديم أو مبرر الإستعلاء؟

لقد كان موسى فى نظر فرعون كما جاء فى القرآن الكرىم، قاتل أحد رجاله حتى ليقول له فى رنة ألم لا تخفى.. ألم ممزوج بالدهشة الحيرى:

(ألم نربك فىنا ولیدا ولبثت فىنا من عمرك سنين.. وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين)

ولم ينكر موسى ﴿قال فعلتها اذا وأنا من الضالين﴾

سورة الشعراء الآيات ١٧، ١٨، ١٩

أوت مصر موسى وربت وعلمت ولما اشتد عوده رأى فى طريقه مصريا، معاصرا من بنى إسرائيل يتنازغان كما يحدث فى حياة كل يوم من أختلاف على المصالح.. ودون أن يسأل السبب أو يقف على جلية الأمر، وكز المصرى ففضى عليه.

ثم خرج، مسرعا، إلى مدين.

ولم ينس ملك مصر.. ولا نحن مهما تقادم العهد.

(قال رب قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون)

القصص آية ٣٢

ألا يخطىء من ليسوا أنبياء.

وعندما يخطىء فرعون موسى هل ينسحب هذا الخطأ على كل فرعون؟

ألم يكن «اخناتون» متساميا موحدا نبيلًا؟

هل ملوك الفرس جميعهم، قمييز؟

هل خلفاء بنى العباس، كلهم، السفاح؟

هل سائر الفاطميين، «الحاكم»؟

وإذا كان فرعون موسى، مخطئا، فموسى قتل، منا، نفسا وإخوة يوسف ألقوا أخاهم الطفل فى الجب وكذبوا على أبيهم.

وأبناء يعقوب سفاحون عندما ذبحوا أهل شكيم أثناء الحفلات الشعائرية.

\*\*\*

إذا جاز أن يحسب علينا خطأ فرعون واحد فإن من المقابل، أن يحسب لنا أمجاد فراعين، يكفى الواحد منهم، أمه بأسرها، فى باب المفاخر.

والاستاذ محمد العزب موسى يركز على قيم الفكر والعدل والفضيلة حين تركز الدراسات والكتابات على فن مصر التشكيلى دون فنها التعبيرى وما أكثره وما أغناه وما أعمقه وهو منحى جدير بالإنباه والإلتجاه إليه.

هل قال بلد من البلاد ما سجلته مصر فى متون الأهرام:

أنا لم أعص أوامر الإله

أنا لم أعق والدىّ

أنا لم ألوث ماء النيل

أنا لم أصد الماء وقت جريانه

أنا لم أطفف فى الكيل

أنا لم أغش فى القياس

أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع

أنا لم أطفىء شعلة فى وقت الحاجة إليها

\*\*\*

وهى قيم خلقية.. وفى الوقت نفسه ركائز أساسية للدين.

### ديمقراطية الدين:

ملح سجله الكاتب.

فى مصر، بعد الثورة الشعبية، تحولت العبادة من «رع» إلى «أوزوريس». وهذا يعنى الكثير..

رع تتطلب عبادته وتتطلع عقيدته إلى السماء ومتابعة حركات الشمس، والكواكب

والنجوم.. ولهذا كانت عقيدة الخاصة.

بينما عقيدة أوزوريس متمية إلى النيل ونابعة من أرضه وزرعه.

عقيدة «رع» كانت تربط الخلود بالشواهد المادية من مقابر وتمائيل وتمحيط ومراكب شمس.

بينما عقيدة أوزوريس يحكمها الميزان وريشة العدالة.. والعدالة لا تفرق بين الناس مهما تفاوتت أقدارهم الإجتماعية.

على أن «رع» أُر، عنه، كما جاء فى نصوص أحد التوابيت:  
خلقت الأنهار العظيمة كى يستخدمها الفقير والسيد العظيم  
وجعلت كل إنسان مثل أخيه، ونهيتهم عن فعل الشر ولكن قلوبهم هى التى لم تفعل ما  
أمرت به.

وكأنه يتصل من التفرقة بين الناس

\*\*\*

فى مصر اشتكى الفلاح، واحدا من النبلاء وانتصر الملك، له، ورد إليه حقه.

وفى الكتاب وقفة «مقارنة» بين:

«بتاح حتب» و «لقمان الحكيم»

فقد لاحظ المؤلف أن:

- كليهما يوجه نصائحه إلى ابنه

- طول العمر

- إنتهاج فضيلة التواضع ونبذ الصلف والتكبر على الناس.

\*\*\*

وفى الكتاب وقفة عند «قصة الخلق».

وكيف أنها حدثت بكلمة من بتاح الذى هو «قلب» و «لسان» الآلهة كلهم إذ أن بتاح نطق  
بأسماء كل الأشياء فوجدت من العدم.

واللسان ينطق بما فى القلب وهكذا تكون كل الموجودات قد جاءت نتيجة للكلمة المقدسة  
التي نطقها لسان «بتاح» تعبيرا عن الفكر الذى فى قلبه.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ٣١ م البقرة ٢

﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ ٨٢ ك يس ٣٦

\*\*\*

إننا إذا أضفنا إلى هذا توحيد مصر وقولها بالميزان والبعث والحياة الأخرى والثواب والحساب والعقاب والجنة والنار، عرفنا لماذا تأصل الإسلام في مصر كما لم يفعل في أى بلد آخر. ونوه الكتاب بقيمة خالدة وغالية ورفيعة من قيم مصر القديمة.. الكتب والكتاب. فقد جاء في بردية من عهد الرعامسة:

- الكتب أكثر خلودا من الأهرامات.

- الكتب هي مقاصير وأهرام في قلوب الناس

- إن كتابا واحدا لأكثر نفعاً من بيت متين الأساس ومن مقبرة في الغرب.. من قصر منيف ومن نصب في معبد.

والكتاب في نظر مصر القديمة:

لم يقيموا لأنفسهم أهراما من نحاس  
ولا شواهد قبور من حديد  
بل جعلوا من كتب الحكمة إرثهم الوحيد  
كانت اضمادات البردى كاهنهم المرتل  
وألواح الكتابة أبناءهم البررة  
وكتب التعاليم، أهراماتهم  
والقلم ابنهم  
والصفحات زوجاتهم.

\*\*\*

وهذا هو الفرق.

حين قامت دولة الرومان على البطش والحرب، وقامت دولة اليونان على تقسيم المجتمع إلى سادة وعبيد.. وطبعا السادة هم الذين يحكمون ويتعلمون ويكتبون ويرسمون الخ.

قامت حضارة مصر على الثقافة يأخذها ويعطيها كل ميسر لها، موهوب، وكم من عظماء الكتاب والحكماء في مصر، خرجوا من صميم الشعب.. وعلى رأس هؤلاء، «ايمحتب» أول شخصية موسوعية في العالم.

لقد كتب مجد مصر، المصريون جميعا. فالملك خيتي يتصح ابنه: (لا ترفع ابن الرجل العظيم على ابن الرجل المتواضع، بل قرب إليك الإنسان حسب كفاءته الشخصية).

تقول «كريستين نوبلكور»: (التلميذ المصرى القديم أول تلميذ فى العالم) من مقال لها بمجلة هيستوريك الفرنسية التاريخية فى عدد خاص عن التعليم والثقافة، قالت فيه:

إن مصر هى التى اخترعت الكتابة، والحساب، والمدارس، والتلمذه ومن يدرى لو لم تكن مصر قد فعلت ذلك، لربما إتخذ تاريخ البشرية مجرى آخر.

من تعاليم «خيتي» بن دوادف لابنه بيبي:

[عليك أن توجه قلبك لقراءة الكتب

تأمل: لا شىء يفوق قدر الكتب

ليتنى أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك

ليت فى مقدورى أن أظهر جمالها امام عينيك

إن الكتابة أعظم من أية حرفة]

وهنا يرسم «خيتي» صورة كاريكاتورية لسائر الحرف.

أعتز دائما بأنه حين عاد «حور محب» من حروبه منتصرا مظفرا، وأراد المشال المصرى أن يصنع له تمثالا يمثل الملك الإمبراطور، طلب إليه «وحور محب» أن يكون تمثاله على هيئة الكاتب المصرى! فى إحساس دقيق وعميق بما للكتابة من معان وهالات..

طلب «حور محب» هذا بوراة حضارية من البلد الذى جعل للكتابة آلهة سماها «سيشات» وزوجها من إله الحكمة فى إحساس وثيق بما بين الكتابه والحكمة من سمات وشيات.

وفى مصر القديمة تبجيل المعلم

كان التلميذ ينادى معلمه «سيدى»

ولعله النداء الأب لقولنا فى الريف لعريف الكُتاب فى القرية (سيدنا)

وفى مصر الحديثة يقول شاعرنا شوقى:

كاد المعلم أن يكون رسولا

قم للمعلم وفه التبجيلا

يبنى وينشئ أنفسسا وعقولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذى

وكلمة أشرف فيها حس القداسة وهي غير (أعظم) أو (أكبر) ولم لا؟

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى

إن مصر الحديثة تسير على درب مصر القديمة فإذا التاريخ على أرضها منتظم الخطى لا تنقطع له مسيرة.

ولعل هذا التقديس للعلم من أسرار مصر. قد يفوتها الحكم.. قد تخسر معركة.. ولكنها في القوة والضعف تشع العلم حتى لتقابل الغزو العسكري، حين حدوثه، في الفترات الحزينة، بغزو ثقافي.. يغزو الفرس، مصر ويطلب «دارا» ملك الفرس في إبان إشتداد مرضه، طيبا من مصر.

ويتعالى الرومان بجهالة وجهامه، غداة الفتح، ثم يهتزون أمام سخريتها بهم ومنهم، فيحرمون على المحامين المصريين، الترافع، أمام محاكم الأسكندرية لأن السخرية المصرية تهز هيبة القضاء الروماني.. ثم يؤول أمرهم في النهاية إلى عبادة إيزيس في الأسكندرية تقربا إلى الشعب المصري ثم في روما نفسها! وتنتقل عبادة إيزيس من روما إلى فرنسا فتسمى أكبر مدنها باريس أي بيت إيزيس ولعل الذين يرجحون هذا يستندون إلى أن «بيت» في الهيروغليفيه يسمى (بره).. وإيزيس في الهيروغليفيه «إيسه» أي (بر إيسه).. فباريس.

\*\*\*

أعود إلى الكتاب.. والفصل الأخير من الكتاب عقد مقارنة شائقة بين مصر القديمة ومصر الحديثة أوضح فيها وجوه الشبه بينهما خاصة في الريف وأحواله وحرفه وبيوته وأزيائه وعاداته وتقاليده بل أسماء المدن وكثير من ألفاظ الحياة اليومية بل القصص والأساطير.. بل الموالد والأعياد كمولد الحجاج في الأقصر وهو خطوة بخطوة عيد آمون.. وقد فصلت هذا في أكثر من كتاب.

إنها كما يقول الدكتور جمال حمدان ملتقيا مع المؤلف ومعنى:

(وحدة الحياة على ضفاف النيل).

معنى يلتقى عنده المخلصون لهذا البلد وسط خضم النفاق والاسترقاق والاسترزاق.

معنى كبير جامع.. وحدة يجب أن نزيكها ونحييها في نفوس المصريين خاصة النشء مناط الأمل في إقالة العثرة الحاضرة، وموطن الرجاء.

وحدة يجب أن تلتفت إليها المدرسة المصرية التي تبدأ تدريس الأدب بالعصر الجاهلى ولا مانع عندنا من دراسته على أن يأتى فى توقيته الزمنى ولكن البداية هى البداية البكرة والبكر.. هى مصر القديمة بما أبدعت من روائع خالدة فى الآداب والفنون والعلوم.

وحدة يجب أن يلتفت إليها التلفزيون المصرى باعتبار، التلفزيون كأداة، معلم الشعوب بما يملك من وسائل الاستهواء وشد العدد الأكبر على تفاوت التعليم واختلاف الثقافات.

وحدة الحياة على وادى النيل يجب أن تكون:

- نقطة تحول

- نقطة انطلاق

إن أزمنا ليست بالدرجة الأولى أزمة اقتصادية كما يتردد ولكنها أزمة معنوية وأزمة أخلاقية.. أزمة إخراق الإنسان المصرى وهنا يكون تعريفه بذاته وانعطافه إلى تاريخه ليس افتخارا أو زهوا، ولكن بثا للثقة فيه وإنتشاله من وحدة اليأس وردا لغربته النفسية.. فيحترم نفسه ويجبر الآخرين على احترامه.

وهنا فقط تتخفف الحياة الحاضرة من العشوائية واهتزاز القيم، واختلال المقاييس.. فترشد وتستقيم مسيرتها وسيرتها.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ «م الرعد ١٣»

إنه التغيير

مفتاحا للحل

\*\*\*

وبعد فإن قارىء هذا الكتاب، كما قرأته، لا يملك إلا أن يشكر المصرى الأستاذ محمد العزب موسى الذى كان صادقا مع نفسه.. صادقا مع تاريخنا..

وليس، قيمة، كالصدق فى كتابة الكاتبين.

## مصر

### فى قصة الحضارة

الحقيقة أن هذا العنوان هو الباب الثامن من الجزء الثانى من (قصة الحضارة) الذى ألفه «ول ديورانت».

وقد استغرق الجزء الأول البحث السابق ولكن (مصر) فى هذه القصة تستأدى وقفة طويلة يفرد لها الحديث.. بسابقتها فى الحضارة، وسالقتها فى المدينة وحققها على الإنسان والأديان.

لست وحدى الذى أقول هذا، مصرية من مصر، ومصر، ولمصر ولكن الغرباء أيضا يقولونه بأبلغ بيان. ومن هؤلاء: جيمس هنرى برستد فى كتابه (فجر الضمير)، Capart فى كتابه «الفن المصرى» واليوم ول ديورانت فى كتابه (قصة الحضارة).

حتى حين كتب عن «سومر» قال إن مصر (كانت مركزا إنتشرت منه الحضارة الشرقية) وقال عن أوروبا وأمريكا إنهما استمدتا من الشرق الكثير وأن «الآريين» (لم يشيدوا صرح الحضارة- بل أخذوها عن بابل ومصر، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه أكثر مما ابتدعوه. وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب، فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمتنا شأنه فإننا بذلك نعرف بما علينا من دين لما شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد).

\*\*\*

ويغمز ول ديورانت، المؤرخ اليونانى «هيرودوت بقوله فى مجال الحديث عن تمثال «إبو الهول» الفيلسوف الذى يحدق بعينه وهو ساكن لا يتحرك، فى الزائرين العابرين وفى السهل الأزلى - أنظر المقابلة هنا-.

يقول ديورانت (كانت الرمال تغطيه فى الزمن القديم، ولذلك لا يذكر هيردوت كلمة واحدة عنه وهو الذى أبصر بعينه أشياء كثيرة لا وجود لها فى تلك البلاد).

ويقف «ديورانت» أمام دلالة بناء الأهرام، شبه مذهول حتى ليقول؟

(ألا ما أعظم ما كان يتمتع به أولئك المصريون الأقدمون من ثراء. وما أقوى سلطانهم وأعظم حذقهم في طفولة التاريخ نفسها. لقد استطاعوا بترائهم وقوتهم وحذقهم أن ينقلوا هذه الحجارة الضخمة ستمائة ميل أو أكثر وأن يرفعوها وهي تزن عدة أطنان وإلى علو خمسمائة قدم. وأن يطعموا المائة ألف من العمال الذين ظلوا يكدحون عشرين عاما كاملة في تشييد هذه الأهرام إذا لم يكونوا قد أدوا لهم أجورهم على عملهم هذا).

وهنا اختلف مع «ديورانت» في نقطتين:

\* أن مدة العمل في الأهرام عشرين عاما كما ذكر ولكن ليست «كاملة» فقد كان العمل ثلاثة شهور كل سنة أى مدة الفيضان الذى يغمر الأرض بالمياه.. وما يعنيه هذا من استقطاب فراغ الأيدي العاملة واستثمارها معماريا وفنيا وحضاريا وكان يعنى من البناء طوائف المتعلمين والكهنة.

يقول الأثرى الدكتور أحمد فخري، لو أن الأمر سخره (لاستحال الإستمرار فى حفظ الطقوس الدينية الخاصة بالملك (خوفو) قرونا كثيرة فلدينا من العصر البطلمى، أى أكثر من ألفى سنة بعد موته، آثار تشير إلى استمرار وجود كهنة «خوفو» حتى ذلك العهد).

أقول، إن الأهرامات كانت مساجد ذلك العصر فبناتها كانوا يتبركون بها وبأصحابها.

وقد أثبتت الدراسات حرص الطبقات الكادحة على أن تدفن على مقربة من هرم خوفو بعد موته بأربعة قرون، بما رسخ فى نفوس الشعب من سيرته ومآثره.

\* النقطة الثانية وهى تتعلق بالأجور فلم يكن الأجر، الطعام وحده بل ثبت لدينا وجود عملة ووجود هذا النص (كنت أنقد عمالى أجرهم قبل أن تغيب الشمس) كما ثبت وجود أحياء كاملة فى هضبة الأهرام للعمال والمهندسين والأطباء تتبعها مدارس ومستشفيات.

مما يدحض السخرية المزعومة التى يلصقها المغرضون بهم ممن ينفسون عليهم هذا المجد.

وهناك نقطة أخرى غابت عن ديورانت فالأهرام ليست مقابر ولكنها تستهدف أغراضا متعددة، يقول أمين سامى باشا صاحب كتاب (تقويم النيل): إن النيل كان يجرى فى ذلك العهد

بالقرب من الهرم. فكانت الرمال تظمر مجراه. وكانوا يقاسون في إزالتها أشد العذاب فبنوا الهرم ذا السطوح المائلة التي إذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية الإنعكاس. وضمنوه فوائد أخرى منها أنه يمكن به تعيين الجهات ومعرفة الفصول.

أقول مرة أخرى إن الهرم وراءه علوم وفنون وإدارة وعقيدة. إنه رمز مصر وحضارتها بفنونها وعلومها ومعتقداتها في البعث والخلود... الخلود الذي يقف الهرم شاهداً عليه بشموخه الثابت وثباته الشامخ حين يتغير في العالم كله: الزمان والمكان والناس.

يقول «ديورانت»: «الما أقصر ما تبدو حياة اليونان أو روما بالقياس إلى السجل الحافل في حياة مصر الذي يمتد من مينا إلى كليو بطره».

ويقول عن الدير البحري للملكة حتشبسوت:

(ليس في وسع من يشاهده أن يخالجه شك في أن اليونان قد أخذوا فنون عمارتهم عن هذا الشعب المبدع المبتكر. ولعلمهم أخذوها منه عن طريق جزيرة كريت. وعلى جدران هذا المعبد نقوش قليلة البروز تنبض بالحياة والحركة والفكر، وتقص قصة أولى نساء التاريخ العظيمة وملكة ليست أقل ملكاته شأنًا.)

ويقول عن رمسيس الثاني (إنه شخصية من أروع الشخصيات في التاريخ، يبدو الإسكندر الأكبر إلى جانبها إنسانًا لا قيمة له ولا خطر).

لقد وقف شاملليون سنة ١٨٢٨ أمام الكرنك يقول في دهشة لا تخفى (فيها تبدت لى عظمة الفراعنة بأكملها، وشاهدت كل ما تصوره الناس وما أخرجوه في أكبر صورة وما من شعب قديم أو حديث غير قدماء المصريين قد صور لنفسه فن العمارة بهذا السمو وهذه العظمة وهذه الفخامة).

ويقول ديورانت عن فن التحنيط المصرى (وقد برعوا في هذا الفن براعة أبقت على قطع من الشعر واللحم عالقة بالعظام الملكية).

يحكم المؤرخون على حضارة من الحضارات بمكان المرأة فيها. وهنا يقول «ديورانت»

كان مركز المرأة عندهم أرقى من مركزها عند كثير من الأمم فى هذه الأيام. وفى ذلك يقول «ماكس ملر»: (ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها سكان وادى النيل).

أقول المرأة المصرية قوية بالوداعة.. والوداعة فيها فرط حنان الذى يجعلها كإيزيس رمزاً للقداء والوفاء كما هى رمز الإصرار وطاقة العمل.

ومن علامات الحضارة المصرية فنون الزينة عند المرأة المصرية فهى سيدة رقيقة تتحلى وتتعطر لا ركيكة تتوسل بالبدايات.

يقول ديورانت:

(كان النساء يقصصن شعورهن كأحسن ما يقصصنه فى هذه الأيام).

وظهرت الأثواب المطرزة ذات الأهداب المختلفة التى لا يحصى عديدها.. وملاك القول إن نساء مصر القديمة لن يتعلمن منا شيئاً من أدهان الشعر والوجه والجواهر لو أنهن بعثن بيننا فى هذه الأيام.

لقد رفعت مصر المرأة إلى قمة لم تبلغها المرأة فى بلد من البلاد أو عصر من العصور حتى يومنا الحاضر وذلك حين جعلتها فى معبد سيني (نقبة الأطباء).

وأكبر تكريم قدمته مصر للمرأة:

\* الدير البحرى فى الأقصر

\* معبد نفرتارى فى أبو سمبل

كانت المرأة المصرية تملك وتتصرف يقول «ديورانت» (كان النساء يمتلكن ويورثن، كما تشهد بذلك وثيقة من أقدم الوثائق فى التاريخ وهى وصية من عهد الأسرة الثالثة توصى فيها السيد بأراضيهما (لأبنائهما) - نقلاً عن بترى.

بل إن الأملاك الزراعية كلها كانت تنتقل إلى الإناث. ويعزو ديورانت زواج الأخ من أخته أن الرجال كانوا يبنون أن يستمتعوا بميراث الأسرة الذى كان ينحدر من الأم إلى البنت، ولا يريدون أن ينعم الغرباء بهذه الثروة.

ويقف «ديورانت» طويلا عن أدب قدماء المصريين وآدابهم.. التي كان يعشقونها قولا وعملا (فما أكثر ما نقرأ عنه من العواطف النبيلة في كتاباتهم. من ذلك ما كتبه أحد الشعراء ينصح مواطنيه:

أطعم الخبز لمن لا حقل له  
لا تطمع في ذراع من الأرض  
ولا تعتد على حدود أرملة

واحرث الحقل حتى تجد حاجاتك وخذ خبزك من بيدرك  
وهي حكمة تفرح بابنا بشدة هذه الأيام الذي أصبح فيها الخبز سلاحا سياسيا.

أما الأدب فقد كان للمصريين كما يقول «ديورانت» دور كتب وخزنه عليها.. (وقد وصلت إلينا مكنبات يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ ق.م وتحتوي برديات مطوية ومحفوظة في جرار معنونة ومصنوفة على رفوف.

وعثر في إحدى هذه الجرار على أقدم صورة من صور قصة السندباد البحري، أو لعلنا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا أسميناها أقدم صورة من صور قصة رينسن كروزو.

أقول «قصة (الملاح الغريق) الذي تأثر، بها الأوديسة حين جعلت بوليسيس يركب سفينة في البحر، يثير «زيوس» في وجهها العاصفة ويمضى التطابق حتى في عبارات الملاح الغريق.

ولم تقتصر المحاكاة على بوليسيس فقد حاكى دانتى أيضا، الملاح المصرى فى قوله: (ما أعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة حلت).

إنها بعينها كلمة الملاح الغريق.

أترك المجال لـ «ول ديورانت» ليقول

أما القصص الكثيرة فكثيرة متنوعة فيما وصل إلينا من بقايا الأدب المصرى القديم. ومن هذه قصص عجيبة بديعة الأطياف والمعجزات والتلفيقات العجيبة التي تخلب الألباب والتي لا تقل فى سبكها وقربها من الحقائق عن قصص الشرطة السرية التي يصدقها رجال الحكم فى هذه الأيام. ومنها روايات غرامية مكتوبة بعبارات طنانة رنانة عن الأمراء والأميرات، والملوك والملكات. ومن

بينها أقدم مثال معروف لقصة «سندريلا» وقدمها الصغيرة الجميلة، وحذائها الجوال وانتهاء القصة بزواجها من ابن الملك.

وفيها قصص خرافية على لسان الطير والحيوان تفصح عن نقائص الأدميين وشهواتهم وعواطفهم، وتهدف في حكمة وتعقل إلى معان خلقية سامية، كأنما هي منقولة عن خرافات «إيزوب» و«لافتين».

\*\*\*

يقول «ديورانت» أيضا عن أدب قدماء المصريين (ولدينا من أغاني الحب الجميلة عدد كبير). وأقول بهذه المناسبة أن أغاني الحب المصرية كانت مصقولة رقيقة من أثر التاريخ الطويل في الحضارة.

إن نقاد الأدب الغربيين يدخلون أغاني الحب المصرية بما فيها من وصف الطبيعة طبيعة مصر وطبيعة النفس الإنسانية في عداد الأدب العالمي حتى قيل إن عليها طابع (هين) خاصة في وصفه لمرض الحب الذي جاء مطابقا تماما لوصف الشاعر المصري القديم القائل:

(عندما أشاهد عينيك

حينئذ تتلاشى كل أحزاني وآلامي)

تقول الحبيبة في الأغاني المصرية)

أنا أختك الأولى

وأنت لي كالروضة

التي زرعت فيها الأزهار

والأعشاب العطرة جميعها

وأجريت فيها غديرا

إذا ما هبت ريح الشمال باردة

وهي المكان الجميل الذي تنتزه فيه

حين تكون يدي في يدك

يفكر عقلانا ويتهج قلبانا

قارن هذا بقول الحبيبة فى نشيد الإنشاد:

(حبيبي رأسه ذهب إبريز، يده حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد بطنه عاج مغلف بالياقوت الأزرق ساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من إبريز).

\*\*\*

إن تراث مصر المكتوب يشمل كما يقول «ديورانت» رسائل رسمية. ووثائق قانونية، وقصصا تاريخية، وطلاسم سحرية، وترنيمات، وكتبا دينية مليئة بعبارات التقى والورع وأغانى الحب والحرب، وأقاصيص غرامية قصيرة، ونصائح تحض على حسن الخلق، ومقالات فلسفية).

أقول من تراث مصر، الخالد، تسايح إخناتون مما أخذته عنه المزامير:

(١٠٤- ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ والمزمور ٥٤١).

أما حب قدماء المصريين للعلم تشهد به آثارهم وما وراءها من علوم الحساب والضبط والقياس والهندسة والفلك والجيولوجيا جاء فى إحدى البرديات (أفرغ قلبك للعلم وأحبه كما تحب أمك، فلا شيء فى العالم يعدل العلم فى قيمته).

وتقول بردية أخرى: (ليس ثمة وظيفة إلا لها من يسيطر عليها، لكن العالم وحده هو الذى يحكم نفسه).

ومن حكمة مصر قولها: (لا تضع وقتك فى التمنى، وإلا ساءت عاقبتك. اقرأ بفمك الكتاب الذى فى يدك، وخذ النصيحة ممن هو أعلم منك).

يقول «ديورانت»: (ولعل هذه العبارة الأخيرة من أقدم ما عرف من الحكم فى أية لغة من اللغات). ص ١٠٥.

وعن علم مصر بالرياضيات يقول «ديورانت»:

(إن أقدم رسالة فى الرياضيات عرفت فى التاريخ هى بردية أحمس التى يرجع تاريخها إلى ما بين عام ألفين وألف وسبعمائة قبل الميلاد، ولكن هذه البردية نفسها تشير إلى كتابات رياضية أقدم منها بخمسمائة عام. وهى تحسب سعة مخزن للفلال أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة، ثم تنتقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى).

ولم تقتصر الهندسة المصرية على قياس مساحات المربعات والدوائر والمكعبات، بل كانت تقيس أيضا أحجام الإسطوانات والكرات، وقد وصلت إلى تقدير النسبة التقريبية بـ ٣,٠٦ وما أعظم فخرنا إذا استطعنا في أربعة آلاف عام أن نتقدم في حساب هذه النسبة التقريبية من ٣,١٦ إلى ٣,١٤١٦.

ويقول عن علمهم بالفلك:

(كانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثابتة، وذكروا في فهارسهم نجوما من القدر الخامس (وهي لا تكاد ترى بالعين العادية.. وأنشأوا التقويم الذي أصبح فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بنى الإنسان).

(كان معظم علماء مصر من الكهنة وذلك لأنهم يعمدون عن صخب الحياة وضجيجها، يتمتعون بما في الهياكل من راحة وطمأنينة فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية).

ولشد ما تذكرني هذه العبارة بهيردوت الذي تعلم في مصر فلما أراد أن يتعلم أسرار العلوم المصرية منعه الكهنة من دخول الهيكل فاشتد حنقه وأطلق قوله (مصر هبة النيل) أى أن المسألة مسألة حظ.. ونسى أن بعض البلاد فيها نهران لا نهر واحد، وأن المسسى أطول من النيل ولكن نهرا من الأنهار لم تقم على شاطئه حضارة كالتي قامت على شاطئ النيل في مصر.. لقد تضافر الإنسان المصرى مع النيل فى خلق الحضارة الإنسان المصرى الذى اقتلع الأحراش وجفف المستنقعات ومهد الأرض للزراعة.. إن حضارة مصر تمثل كما يقول توينبى أكبر مؤرخى العصر الحديث، التحدى والاستجابة. إن مصر هبة النيل وهبة الإنسان المصرى لقد حابى الله، مصر، بالنيل ووهبها معه، الذكاء، أيضا.

ومن الغريب أن أكثرنا يردد مقولة هيرودوت على أنها مدح وهو لا يعرف خلفياتها.. أو قصتها.

يقول الكهنة أى العلماء المصريون (إن العلوم قد اخترعها من ١٨,٠٠٠ ثمانية عشر ألف عام قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصرى.

ويقول «ديورانت» (وهذا ما يؤكد لنا يميلكس (حوالى ٣٠٠ ق. م) أما منيثون المؤرخ المصرى الذى عاش حوالى ٣٠٠ ق. م فيرى أن هذا التقدير لا ينصف «تحوت» ويقدر عدد ما وضع «تحوت» من الكتب بستة وثلاثين ألف كتاب. وكان اليونان يعظمون تحوت ويسمونهم «هرمس»).

ويقول «ديورانت» (أما أكبر مفخرة علمية للمصريين فهي علم الطب).

وأضيف إليه، هنا، قول «وارن داوسن».

(إن أسس علم الطب وضعت في مصر منذ أكثر من خمسين قرناً بما لا يدع مجالاً للشك).

وفي النهاية يقول «ديورانت» عن مصر بعد تحليل واسع:

(وحسبنا أن نذكر من معالم حضارتها نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية وأنها في أغلب الظن هي التي اخترعت الزجاج، ونسيج الكتان، وأنها هي التي أحسنت صنع الملابس، والحلى، والأثاث والمساكن، وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة، وأن المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن في البلاد، وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائي والثانوي بل إنهم أول من أوجد نظام التعليم الفني لإعداد الموظفين ورجال الإدارة.

وهم الذين ارتقوا بالكتابة. ونهضوا بالآداب والعلوم والطب. والمصريون على ما نعرف أول من وضع دستوراً واضحاً للضمير الفردي، والضمير العام، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية، وبالاعتصام على زوجة واحدة وأول من دعا إلى التوحيد في الدين وأول من كتب الفلسفة.. وأول من نهض بفن العمارة والنحت وارتقى بالفنون الصغرى إلى درجة من الإتقان والقوة لم يصل إليها (بما نعرف) أحد من قبلهم، وقلما يراهم فيها من جاء بعدهم.

إن مصر بفضل هذا كله تعرض على العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا).

ألم أقل إنها مصر.

## قصة الحضارة

موسوعة ألفها «ول ديورانت» عن رحلة الحضارة الإنسانية من أحد عشر مجلدا كبيرا. ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود والأستاذ محمد بدران ودكتور عبد الحميد يونس والدكتور محمد على أبودرة والأستاذ فؤاد اندراوس وتقع الترجمة العربية في ٤٢ جزءا. وقد راجع الأستاذ على أدهم بعض هذه الأجزاء.

وقد انفرد «ول ديورانت» بالتأليف حتى المجلد السادس ثم شاركته زوجته بدءا من المجلد السابع، الذي حمل اسميهما معا: ول ديورانت، أريل ديورانت.

وأنا أكتب عن هذا الكتاب تذكرت أول عهدي بهذه المجلة وهو عهد بدأ قبل أن تظهر. وقد إخترت أن يكون عنواني الدائم (من عيون الكتب) لأنني كنت أعرف أنني تأثرت بكتب من الشرق والغرب.. من الثقافة العربية والأدب العربي. ومن الثقافات الأخرى شرقية وغربية فقد درست الفارسية والتركية بالجامعة ودرست إلى جانبهما الإنجليزية والفرنسية واللاتينية أيضا.. وقبل هذا، اللغة الأم.. العربية.

وكل لغة نافذة على عالم رحيب ورؤى بعيدة.. ولكنني فوجئت بالمجلة تضع على الكتب التي أقدمها بين دفتيها، عنوانا آخر (من عيون التراث) والعنوان يوحي بأن الكتب قاصرة على ما كتب في العربية مما يشكل جانبا كبيرا من التراث الخاص بنا.

أقول يشكل جانبا كبيرا لأن روافدنا الثقافية تستهل أو يجب أن تبدأ بعطاء مصر القديمة التي إخترت الكتابة والكتب وارتادت أفاقا يحسبها الكثيرون من وضع الآخرين وهي نبع مصر الفرعونية فهي موطن القصة القصيرة ومصر هي صاحبة أول بحث فلسفي وأول مسرحية في آداب الدنيا هي مسرحية منف التي يحتفظ بها متحف لندن، والتي كتبت قبل الدراما اليونانية بنحو ثلاثة آلاف سنة (كتبت ٣٤٠٠ ق.م).

كما أن كتب أوريغانوس واثناسيوس من آباء مصر هي خير ما كتب في المسيحية حتى ذاع في أوروبا، القول: «إذا سمعت قولاً لأثناسيوس ولم تجد ورقاً تكتبه عليه فاكتبه على قميصك في الحال».

ومصر الإسلامية وضعت الموسوعات وابتدعت فن الخطط والأخاخذ ونبغت في فن السير وكانت «مدرسة» في البلاغة، وإمارة في الشعر، وإمامه في النثر بألوانه من قصة ومسرحية وبحث وتحقيق.

والبحث في ريادات مصر الفنية والأدبية على مسار تاريخها كله، موضوع لمجلدات، لامقال.

إن صاحب الكنز المعنوي لا يزهو في الكنوز الأخرى فالحديث الشريف يقول «نهمان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال»..

والمال ليس نقودا فحسب، فالتراث بحكمته وروائعه وآدابه وعلومه وفنونه، ثراء عريض. ونحن كتابا وقراء، طلاب علم وطلاب حقيقة وطلاب مال من نوع آخر أي كنوز المعرفة وهي أعلى من أموال الأرض.

بعد هذه المقدمة أَدعو القارئ إلى اعتبار عنوان المجلة (من عيون التراث) ينسحب على التراث الإنساني قديمه وحديثه. وهنا أستطيع أن أقدم كتاب العدد (قصة الحضارة).

ألف هذا الكتاب، ول ديورانت في أحد عشر مجلدا كما أشرت يتقسم كل منها إلى عدة أجزاء تكلم في الجزء الأول من المجلد الأول عن نشأة الحضارة. وقد حاول فيه كما يقول أن يقص ما أدته العبقرية وما أداه دأب العاملين في ازدياد تراث الإنسانية الثقافي وأن تكون قصته (مصحوبة بتأملات في العلل ووصف الخصائص وماترتب من نتائج لما أصابه الإختراع من خطوات التقدم، ولأنواع النظم الإقتصادية، والتجارب في ألوان الحكم، وما تعلقت به العقيدة الدينية من آمال، وما اعتور أخلاق الناس ومواضعاتهم من تغيرات، وما في الآداب من رواع، وما أصابه العلم من رقي، وما أنتجته الفلسفة من حكمة، وما أبدعه الفن من آيات).

وهي كما نرى مهمة صعبة متشعبة ومجهددة، ورائدة، وأن يكون هذا بأجمعه في كل لا يتجزأ، عطاء يحسب لصاحبه.

وقد إطمأن ديورانت إلى هذا المنهج بعد أن رأى الطريقة المعتادة في كتابة التاريخ مجزءا أقساما منفصلا بعضها عن بعض، يتناول كل قسم ناحية واحدة من نواحي الحياة فتاريخ إقتصادي، وتاريخ سياسي، وتاريخ ديني، وتاريخ للفلسفة، وتاريخ للأدب، وتاريخ للعلوم، وتاريخ للموسيقى، و تاريخ للفن، يقول ديورانت:

(أحسست أن هذه الطريقة فيها إجحاف بما في الحياة الإنسانية من وحدة، وأن التاريخ يجب أن يكتب على نحو تركيبي كما يكتب على نحو تحليلي).

وقد تحسب ديورانت ما قد يتعرض له منهجه من نقد في عالم ينتهج التخصص حتى غدت نواحي الاختصاص تعد بالئات يقول «فتاح حوتب» حكيمنا المصري، منذ خمسة آلاف عام: (أنظر كيف يمكن أن تتعرض لناوأة الخبراء في المجلس، إنه لمن الحمق أن تتحدث في كل ضروب المعرفة).

مرة أخرى أقول مهمة صعبة شاقة وشائقة.. مجهددة ورائدة.

ويرتفع ديورانت إلى قمة حين يجهر منصفًا بكلمة الحق شأن العلماء الأجلاء، فيضع كلا، في مكانه الصحيح وحجمه الطبيعي.

يقول ديورانت منصفًا عن التراث الحديث للإنسانية (إن قصتنا تبدأ بالشرق، لا لأن آسيا كانت مسرحًا لأقدم مدنية معروفة لنا فحسب، بل كذلك لأن تلك المدنات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التي ظن «سير هنري مين» خطأ أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث، فسيدھشنا أن نعلم كم مخترعا من ألزم مخترعاتنا لحياتنا، وكم من نظامنا الإقتصادي والسياسي وما لدينا من علوم وآداب، ومالنا من فلسفة ودين، يرتد إلى مصر والشرق، وفي هذه اللحظة التاريخية- حيث تسرع السيادة الأوربية نحو الإنهيار، وحيث تنتعش آسيا مما يبعث فيها الحياة، وحيث الإنجاء كله في القرن العشرين يبدو كأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب- وفي هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقًا ذريعا في تصوير الواقع ونقضا فاضحا في ذكائنا. إن المستقبل يولي وجهه شطر المحيط الهادي، فلا بد للعقل أن يتابع خطاه هناك).

ولكى يكتب «ول ديورانت» عن الشرق حمل نفسه على الرحلة إليه والدراسة ثمانية أعوام متصلة قال بعدها وقد استبان الحقيقة له (إن العمر بأسره يخصص للبحث العلمي لن يكفي طالبا غريبا ليديمج نفسه في روح الشرق البديقة للصحاح وفي ترائه الغامض).

كتاب (قصة الحضارة) ضروري لكل إنسان يتمثل قول «فولتير» (أحب أن أعلم الخطوات التي سارها الإنسان في طريقه من الهمجية إلى المدنية).

وعند «ديورانت» ترتبط الثقافة بالزراعة Culture- Agriculture كما ترتبط المدينة بالمدينة و «ديورانت» له نظرية في «المدينة». فعنده أن الإنسان لا يخلق «المدينة» ولكن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته، والثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه.

(فالمدينة لا ترتبط بالجنس إلا بمعنى واحد، وهو أنها تجيء عادة بعد مرحلة يتم فيها التزاوج البطيء بين شتى العناصر، ذلك التزاوج الذي ينتهي تدريجيا إلى تكوين شعب متجانس نسبيا.. يضاف إلى هذا، العوامل النفسية الدقيقة، ثم لا بد للناس أن يشعروا شيئا فشيئا أنه لا حاجة بهم إلى توقع الموت أو الضريبة عند كل منعطف في طريق حياتهم) - إنه إحساس الإنسان بالضرائب - ثم يضيف «ديورانت» عاملين هما في نظري قاعدتان أساسيتان لا مجرد إضافة

١ - وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار

- الإيمان بما هو كائن وراة الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العلم وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدنا قبل أن يخطفها الموت.

\*\*\*

وأخيرا يأتي دور التراث الذي يجمع المعارف والأخلاق والتقاليد والعلوم والفنون ومعطيات الأمة على مسيرة حياتها لأن هذا التراث هو الذي ترتكس إليه فلا تسقط، وترتكز عليه فلا تقع أو تضيع.

وعند «ديورانت» أن المدينة ليست شيئا مجبولا في نظرة الإنسان.

كلا ولا هي شيء يستعصى الفناء، وإنما هي شيء لا بد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال إكتسابا جديدا.

تكلم «ول ديورانت» في الفصل الأول عن المرحلة أو الرحلة (من الصيد إلى الحرث).

وهو فصل يحفل بالطرائف وقد استهله بقوله: (إن نظام الوجبات الثلاث في كل يوم نظام إجتماعي غاية في الرقي، أما الأقوام الهمجية فهي إما أن تتخم نفسها دفعة واحدة أو تمسك عن الطعام) والمثل من قبيلة «البوشمن» Buch-Men في أفريقيا فالحياة عندها (إما وليمة وإما معجاة).

ومن الطريف قول ديورانت (إن في قصر النظر هذا الحكمة صامته، كما هي الحال في كثير من أساليب الحياة عند «الهمج» ذلك أن الإنسان إذا ما بدأ يفكر في غده فقد خرج بذلك من جنة عدن إلى وادي الهموم، وحلت به صفرة الغم، وها هنا يشتد فيه الجشع، تبدأ الملكية، ويزول عنه البشر المتهلل الذي يعرفه الإنسان الأول الخلى من كل تفكير.

ومن الطرائف أو الحقائق في الواقع، أن : (التحل الذي ملأ خليته بالعسل، والنمل الذي خزن زاده أكادسا إلقاء يوم مطير - هذه جميعا كانت أول منشىء للمدينة.

وللصيد عند «دل ديورانت» فلسفة (لم يكن الصيد والسماكة مرحلتين من مراحل التطور الإقتصادي، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التي كتب لها أن تظل باقية في أعلى صور المجتمع المتحضر لقد كانا ذات يوم مركز الحياة. وهما الآن بمثابة أساسها الخبيثين، إذ يكمن وراء أولئك الصيادين الأشداء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة، فكأنما نؤدى اليوم صيدنا بواسطة غيرنا نبيه عنا، إذ تعوزنا جرأة القلب التي نقتل بها طرائدنا علنا في الفضاء المكشوف، لكن ذكريات الصيد القديم ماتزال تعاودنا حينما نغضب بمطاردتنا الضعيف أو الذي يلوذ منا بالفرار، بل إنها تعاودنا في ألعاب أطفالنا - حتى الكلمة التي نطلقها اليوم على اللعب هي نفسها التي تدل على الصيد - لفظة Game الإنجليزية تعنى الصيد وتعنى اللعب أيضا.

وإذن فأخر ما نصل إليه في تحليل المدينة هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه.

وهنا يحضرني قول الإمام الشافعي: لا تستشيروا من ليس في بيته دقيق فإن عقله غائب - في إشارة إلى شأن الرخاء المادي يكسب الرخاء النفسى والعقلى.

أعود إلى ديورانت الذى يقول، فإن رأيت فخامة الفن فى الكاتدرائية أو مبنى الكابيتول، وإن شهدت متحفا للفن أو حفلة موسيقية، وإن صادفت مكتبة أو جامعة، فاعلم أن هذه كلها واجهة البناء التى تخفى وراءها أشلاء القتال).

ومن الطرائف أو الحقائق أن المرأة أثناء مرحلة الصيد (كانت فى طريقها إلى أكبر كشف إقتصادي بين تلك الكشوف جميعا، وهو معرفة ما يمكن لتربة الأرض أن تخرجه من طيبات).

والخافرة أى ذلك الشئ الذى يشبه العصا الذى كانت المرأة تنكت به الأرض هي (أبسط ما عرفه الإنسان من أدوات زراعة الأرض).

وتعاونت النار والزراعة على تحرير الإنسان من إعماده على الصيد.

يقول ديورانت أن الإنسان فى هذه الفترة كانت أذ أطباقه وأشهاها زميله الإنسان ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوما شائعا بين الناس جميعا. فقد وجدناه فى كل القبائل البدائية تقريبا، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة، تاريخا مثل سكان إيرلنده وإيريا وجماعة البكت، بل بين أهل الدنمارك فى القرن الحادى عشر.

أقول أى بعد بناء الأهرام بنيف وأربعة آلاف سنة!!

يقول «ديورانت»

(لكن بدأت: إنسانية الإنسان بالكلام، وبدأت المدنية بالزراعة، فقد بدأت الصناعة بالنار التى لم يخترعها الإنسان إختراعا، بل الأرجح أن قد صنعت له الطبيعة هذه الأعجوبة بإحتكاك أوراق الشجر أو غصونه، أو بلمعة من البرق أو باندماج شاءته المصادفة لبعض المواد الكيماوية، ولم يكن لدى الإنسان فى ذلك إلا الذكاء الذى يقلد به الطبيعة).

ويتحدث «ديورانت» عن أبسط الإختراعات فى حياة الإنسان، حديثا طليا. الحديث هنا عن :  
العصا.

(ألا ما أبسطها اختراعا لكنها من كثرة النفع بحيث لبث الإنسان ينظر إليها رمزا للقوة والسلطان، من العصا السحرية عند عرائس الجن وعكاز الراعى إلى عصا موسى أو هارون، والعصا العاجية التى كان يمسك بها القنصل أيام دولة الرومان، والقضيب الذى يلوح به المنبتون بالغيب، ثم الصولجان يمسك به القاضى أو الملك، ولقد إنقلبت العصا فى الزراعة فأسا، أما فى الحروب فقد أصبحت حربة أو سهما أو رمحا أو سيفا أو سنكيا)

«ولى فيها مآرب أخرى»

وتحدث «ديورانت» عن بدايات الخزف والنسيج ثم رحلة المدنية فى حمل الأثقال وإختراع العجلة ثم صنع الزوارق بتفريغ جذوع الأشجار وأصبحت مجارى الماء أيسر طرق النقل.

وفى رحلة الإنسان أذى تفاوت الكفايات البشرية والموارد إلى المقايضة وهكذا أصبح، التبادل هو أصل التجارة.

أما العملة فقد بدأت بالماشية.

وكانت الماشية معيارا مناسباً لقياس القيمة ووسيلة للتبادل بين الصائدين والرعاة، فهي تريح بالتربية وهي سهلة الحمل لأنها تنقل نفسها، فتجد الناس والأشياء حتى عهد هومر يُقومون بالماشية.

واللفظتان اللتان استعملهما الرومان للماشية وللمال متشابهتان، فلأولى استعملوا لفظة Pecus وللثانية Pecunia وكذلك طبعوا صورة ثور على نقودهم القديمة، بل إن الكلمة التي تستعملها اللغة الإنجليزية لرأس المال وهي Capital ترد في تاريخها عن طريق اللغة الفرنسية إلى الكلمة اللاتينية Capitale ومعناها ملك وهذه الكلمة بدورها مشتقة من Caput التي تعني «رأس» والمقصود رأس من الماشية. فلما أن استجتمت المعادن أخذت تحل شيئا فشيئا محل سائر الأشياء في استعمالها معيارا للقيمة.

\*\*\*

وفي رحلة الإنسان نحو المدينة قوى الإحساس بالملكية إلى الحد الذي لازمت الأشياء المملوكة، مالكةا، فغالبا ما دفنت معه في قبره، وانطبق هذا على الزوجة نفسها.

وعرفت رحلة الإنسان شيوعية القوت ولكن حين نهض الإنسان إختفت الشيوعية البدائية (لأنها عقبة في سبيل تنازع البقاء، وأنها لم تحفز الناس بما يكفي لتشجيعهم على الإختراع والنشاط والإقتصاد، وأن عدم مكافأتها للأقدر وعقابها لمن هو أقل قدرة سوى بين الكفائيات تسوية تعاند النمو وتعارض التنافس الناجح مع سائر الجماعات).

وصحب تقدم الإنسان واصطراع القوى واندلاع الحروب، ظهور الرق حتى اعتبره أرسطو وكذلك القديس بولس شيئا طبيعيا.

ويقول «ديورانت».

(الحروب هي التي تخلق الرئيس وتخلق الملك وتخلق الدولة، كما أن هؤلاء جميعا هم الذين يعودون فيخلقون الحروب).

ويقول «ديورانت» إن الإنسان بفطرته ليس ميالا إلى الحرب والدليل عنده أن بعض الشعوب المتأخرة غاية فى حب السلام (ولم يستطع الأسكيمو أن يفهموا لماذا يطارد الأوربيون بعضهم بعضا كأنهم الحيتان- مع أنهم يدينون جميعا بعقيدة مسالمة واحدة-ولماذا يسرق بعضهم أرض بعض.ولذا قالوا فى تمجيد أرضهم: (ألا ما أجمل أن يكون غطاؤنا ثلجا وجليدا!.. إن عقم أرضنا عن الإثمار مؤد إلى سعادتنا ومنقذنا من إعتداء المعتدين).

\*\*\*

والفصل الأول فى الباب الرابع، فصل طريف عن الزواج.

ومن أهم فصول الكتاب، الفصل الرابع عن الدين عند البدائين.

أما الباب الخامس فيدور عن العناصر العقلية فى المدنية: الأدب والعلم والفن ويدور الفصل السادس عن بدايات المدنية قبل التاريخ.

ما هى مصادر الدين فى بدايات رحلة الإنسان؟

هذه المصادر تتمثل فى

الخوف- الدهشة- الأحلام- النفس- الروحانية.

كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار حتى لم يصدق الإنسان البدائى أن الموت ظاهرة طبيعية.. أثار دهشته الجنس والأحلام ثم الأثر الغريب الذى تحدثه أجرام السماء فى الأرض والإنسان.. فزع الإنسان من رؤية موته فى أحلامه حتى كان أحيانا يترك للميت الدار التى جاءه فيها الموت وينتقل هو إلى دار أخرى (وفى بعض البلدان كان الإنسان البدائى يخرج الجثة من الدار خلال ثقب فى الحائط، لا من بابها، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة، لكى تنسى الروح أين المدخل إلى تلك الدار فلا تعاودها أبدا..) طريفة.

جاء فى كتاب من كتب «يوباناشاد» فى الهند القديمة أن لكل شىء روحا وأن العالم الخارجى ليس ليس مواتا ولا خلوا من الإحساس لكنه كائن حى دافق الحياة وهذه الروحانية فى النظر إلى الأشياء هى ما فى الدين من شعر، وما فى الشعر من دين.

\*\*\*

وفى رأى الشعراء فى كل العصور- أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والشمس والقمر والسماء، كلها أشياء مقدسة.. وكانت الغابات فى رأى الجرمان الأقدمين كانت فى أول أمرها عامرة بالجن والشياطين والسحرة والمردة والأقزام وعرائس الجنة.. يقول «ديورانت» (إنك لتلمس هذه الكائنات الجنية مبنوثة فى موسيقى «فاجنر» وفى مسرحيات «إيسن» الشعرية.. ويستحيل أن يعترف بشاعر أو كاتب مسرحى على أنه من رجال النهضة الأدبية هناك إلا إذا أدخل الجنيات فى أدبه وإن فى هذه النظرة الروحانية لحكمة وجمالاً، فمن الخير الذى يشرح الصدور أن تعامل الأشياء معاملة للأحياء).

كان الخوف أساس الطوطة كما هو أساس كثير من العبادات.  
عبد الإنسان قوى الطبيعة والأقوياء من البشر حتى بعد موتهم..  
إنها حيرة الإنسان وخوفه معاً..

\*\*\*

كيف حلت مصر هذه المعادلة؟  
موعدنا معاً فى الجزء الثانى من المجلد الأول من هذه الموسوعة الحضارية.  
إن مصر فى (قصة الحضارة) قصة وحدها.

## الحضارة العربية في أسبانيا

ألف هذا الكتاب المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال وترجمه إلى العربية الدكتور الطاهر أحمد مكي.

وفي المكتبة العربية عن الحضارة الاسلامية في اسبانيا- بعامة والاندلس بخاصة، موسوعة مؤرخنا الكبير الأستاذ عبدالله عنان ولكن الدارس استاذنا أو طالبا من واجبه أن يعرف جميع الآراء.

إن المؤلف له رأى متحفظ فيما يكتب المستشرقون ولكنه أيضا يقول فى وعى: (رأى دائما أنهم يكتبون فى ضوء فهمهم وذوقهم وتكوينهم المزاجى، ولصالح بلادهم وثقافتهم أولا وأخيرا، وليس لنا أن نطلب منهم غير ذلك، والباحث الموضوعى الكامل لم يخلق، وبحسبنا منهم ألا يكذبوا، أو يزيفوا، وعلينا أن نقف على قولهم، وأن نفيد من منهجهم، وأن نضع يدنا على الوثائق والحقائق التى تحت أيديهم وهو أمر ليس متيسرا على الدوام، وأن نأخذ من آرائهم ما هو حق، دون أن يصدنا جهل أو غرور، وأن نرد عليهم ما هو باطل، دون أن يقعد بنا، تهاون، أو جبن، ولهذا حرصت كعادتى على أن أترجم النص كاملا، وفى أمانة، مهما يكن رأى فى بعض ما يحمله من آراء).

أقول لسنا من هواة مقاطعة الفكر فديننا يقول (من تعلم لغة قوم أمن شرهم) واللغة هنا وعاء لما يكتب بها هذه نقطة.. أما النقطة الأخرى فهى أن بعض المستشرقين أنصفوا الإسلام والحضارة الإسلامية ولم يجاروا من أساء إليها من أقوامهم.

والمؤلف أعطى عمره وأنفق سنه فى الاطلاع على المخطوطات والوثائق المتعلقة بالموضوع وتصنيفها ونشرها وعكف بصفة خاصة على كتابة تاريخ الأندلس كما يقول المؤلف فكان كتابه الرائع: تاريخ أسبانيا الإسلامية حتى سقوط الخلافة، وأسبانيا الإسلامية، النظم والحياة الإجتماعية.. وهما أفضل ما كتب فى هذا المجال وكلاهما مترجم إلى اللغة الأسبانية.

نقطة أخرى أضيفها وهي تخفى على الكثيرين ومن واجب الكتابة والكتاب أن يقفوا عندها طويلا وهي سماحة الإسلام في أوج سلطانه، في أسبانيا مع اليهود واعترافهم بتميزه في هذا الإرتفاع.. وهذا سر كتابتهم عن الحضارة العربية في أسبانيا.. وقد يكون سر الإطمئنان بعض الشيء، إلى هذه الكتابة في اوساط مثقفينا.

لقد إعترف الحاخام الأكبر للإمبراطورية البريطانية في كتابه الذي سماه (في الفكر اليهودي) وقلما ينصفون أحدا بدليل أن هذا الإعتراف مشوب أيضا بنعرتهم التقليدية وانتحال فضل الحضارات الأخرى أو ادعاء الفضل فيها.

ولكن هذا كله لم يستطع معه، الحاخام، إنكار تسامح الإسلام مع اليهود في قمة ازدهار دولته بأسبانيا.

يقول الحاخام د. ج. هـ هرتس في فصل:

(إخراج اليهود من أسبانيا والبرتغال ١٤٩٢-١٤٩٧).

يرجع اضطهاد العنصر اليهودي إلى فجر العهد الذي تسلمت فيه المسيحية إدارة الشؤون المدنية إذ ظلت كراهية اليهود لعدة قرون رمزا من رموز الصلاح والتقوى عند المسيحيين.

لقد هاجمتهم جميع الأمم المسيحية، فأشبعتهم شتما، وامتهانا واحتقارا وسلبا ونهبها، ولقد طردهم من إنجلترا ادوارد الأول.. ومن فرنسا شارل السادس، فلم يجدوا ملجأ إلا الأندلس، حيث أحاطهم امراء الاسلام بمعطف خاص ولكن في ساعة نحس وشؤم إكتسح الصليب الهلال واحتل مكانه على قمة الحمراء، فهدم هذا الملاذ الوحيد وخفت مصباح التسامح الديني في أسبانيا إذ تقرر إخراج اليهود منها) ص ٢١٥-٢١٦.

والكتاب يتكون من ثلاثة فصول كبيرة

الفصل الأول عن : الغرب الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية.

الفصل الثاني عن: المشرق الإسلامي والحضارة العربية الأسبانية

الفصل الثالث عن : أسبانيا المسيحية والحضارة العربية الأسبانية.

يلى هذا ملحق كبير عن المذهب المالكي في الأندلس وإسهامات المذاهب الأخرى.. مع تواريخ هامة ذات صلة بالتاريخ السياسي.

تناول الفصل الأول بداية تكوين الدولة الإسلامية في الأندلس على يد عبدالرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبدالملك وكيف حفل القرن التاسع الميلادي بالصراعات حتى استقر الأمر للأمويين في أسبانيا في بدايات القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري).. وتناول الفصل الثاني عطاء أسبانيا وعطاء الإسلام العلمي فقد قصدت الرحلة، أسبانيا، وقصدها من المشرق الفارسي «ابن خرداذبة» و «اليعقوبي» و «المقدسي» و «ابن حوقل» الذي أعطانا طائفة من المعلومات الدقيقة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في أسبانيا الإسلامية وإن لم يكن رأيه في سكان قرطبة مرضياً. وإلى أسبانيا رحل «زرياب» وبلغ بها مكانة مرموقة حتى أنه كان يجوب شوارع قرطبة في موكب فخم من الفرسان.

وحفل تاريخ الإسلام في أسبانيا بهذه الأسماء

عباس بن فرناس الذي بشر بالطيران في العصور الوسطى وفي علم القراءات «أبو عمرو الدالي» و «ابن وضاح» و «عياض السبتي» والمحدث «ابن سعادة» الذي كتب نسخة جيدة الضبط من كتاب صحيح البخاري، في مرسيه سنة ٤٩٢ هـ.

ومن الفقهاء: أبو وليد الباجي، وأبو الوليد بن رشد (جد ابن رشد الفيلسوف) وابن عاصم مؤلف كتاب (تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام) وقاضي قرطبة منذر بن سعيد البلوطي وفي فقه اللغة العربية «ابن سيده» صاحب معجم (المخصص في اللغة) الذي يقع في سبعة عشر جزءاً.

وابن عبد ربه مؤلف (العقد الفريد) وهو موسوعة ضخمة تأثر فيها بكتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة

وأبو علي القالي مؤلف كتاب (الأمالي) وهو من عيون التراث وينشأ في أسبانيا علماء وفلاسفة مسلمون على رأسهم ابن رشد وفلاسفة أسبان مثل سينيكا Séneca وتريسا دي أفله وهي راهبة أسبانية Tresa de Avila ولم يحل هذا دون أن يعترف ميغيل اسين بلانوس، كما يقول المؤلف بعد معاناة طويلة في مؤلفات رؤساء تلك المذاهب والاتجاهات: (إن تاريخ الفكر الفلسفي في أسبانيا الإسلامية هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الإسلامية المشرقية دون أن تكون له بالتراث المحلي صلة حقيقية يقوم عليها الدليل).

وأبرز ما فى الفصل الثالث (أسبانيا المسيحية والحضارة العربية الأسبانية) رحلة اللغة العربية فى اللغة الأسبانية حيث يقول المؤلف إن الأسبانية وجدت نفسها طيلة مراحل نموها وحتى القرن التاسع الميلادى مضطرة إلى أن تأخذ من اللغة العربية كل ما كان ينقصها حينئذ لتستطيع التعبير عن المفاهيم الجديدة وبخاصة فى مجال المؤسسات والنظم والحياة الخاصة .  
ففى النظم العسكرية تطلق إلى اليوم كلمة الفارس العربية على رتبة الملازم ..Alferez  
ومقدمة الجيش: الطليعة Atalaya

وفى مصطلحات العمارة يطلق على البناء Albanil وعلى الطوب Adobe  
وفى مؤسسات الدولة يطلق على الضرائب المصطلح العربى: القبالة Alcabala وعلى رئيس البلدية Alcalde وهى تحريف لفظة القاضى  
وكان مسيحيو شمال أسبانيا يستخدمون الكلمات العربية فى المناصب المدنية مثل صاحب المدينة Azlmedina .. والمعتمد Almotacen.

أما أسماء الأماكن وخاصة فى جنوب الجزيرة فيغلب عليها إلى اليوم، الأسماء العربية فالوادى الكبير Guadalquivir ومدينة سالم Medinaceli وقلعة أيوب Calatayud أو البسيطة .Al bacete

وفى الريف الأسبانى تسود فى الزراعة الأسماء العربية مثل الناعورة noria وهى لفظ إنتقلت إلى الفرنسية أيضا وكلمة «المضربة» Almadrabas فى الأسبانية و Madragues فى الفرنسية.  
وفى الفاكهة والزهور، البرقوق Albaricoque فى الاسبانية و Abricot فى الفرنسية والياسمين Jazmin والقطن Algodon والزعفران Azafran والزيت Aceite  
وأخذت الفرنسية عن طريق الأسبانية أسماء كثير من الألوان مثل أزرق Azar والأصهب alezam وقرمزى carmaisie.

وكثير من من أسماء الملابس والمجوهرات والأثاث والعمارة والفن وقد أنتقل تأثير الحضارة الإسلامية واللغة العربية من أسبانيا إلى ما حولها وخاصة إيطاليا وفرنسا.  
أما الكتب العربية وتأثيرها فيقف على قمته كتاب: (حى بن يقطان) لابن طفيل وكتاب (طوق الحمامه فى الألفه والآلاف) لابن حزم. وقد كتبت بتفصيل عن هذا الكتاب لمجلة (كل الناس) ونشر فى أعدادها السابقة.

وبعد فإن كتاب (الحضارة العربية في أسبانيا) يستحق الوقوف عنده طويلا فهو يجلو صفحة كدنا أن ننساها وما أحوجنا إليها في عصر «التغريب» إسترداداً للثقة في انطلاقه لصعود المسرح من جديد.

## إيمحتب

كتاب ألفه ج. هارى Jamieson B. Hurry ترجمة الاستاذ محمد العزب موسى وراجعه الدكتور محمود ماهر طه.

والكتاب من مشروع المائة كتاب فى سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية التى رعاها الدكتور أحمد قدرى.

المؤلف من عشاق الحضارة المصرية القديمة حتى ليقول إن (عددا متزايدا من المثقفين الذين تهزهم قصة مصر القديمة وهى تتكشف تدريجيا فإن أرض الفراعنة لها سحر لا يكاد يدانيه سحر أى بلد آخر، وهذا السحر يتزايد بإطراد كلما فهمنا على نحو أفضل ذلك التاريخ الإستثنائى لمصر، وليست هناك حضارة قديمة أخرى يمكن أن نفهمها ونعيد تركيبها بهذه الدرجة من التحقق واليقين).

ويقول عن إيمحتب إن الكتاب أو الدراسة فيه، مكرسه لذكرى طيب ساحر وحكيم متميز يظهر لأول مرة على مسرح التاريخ المصرى فى حكم الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة.

وأضيف إلى هذا القول أن إيمحتب كان طبيبا حكيما وساحرا وكان أيضاً أديبا ومثالا ومهندسا ووزيرا وفلكيا وكاهنا. كان أول شخصية موسوعية فى تاريخ بنى الإنسان.

وينكر المؤلف على الإغريق أن جعلوا «اسكليوبوس» رمزا للطب فى حين أن إيمحتب هو الجدير بهذا الشرف والمكانة لعدة أسباب: أولا: لأنه أقدم من «اسكليوبوس» بلا مرء

ثانيا: بفضل الخدمات التى أداها لبلاده كوزير للملك زوسر ومنها بناء هرم سقارة المدرج

ثالثا: لشهرته الطويلة كمبريء من الأمراض وهى الشهرة التى خلدت به فى التاريخ.

ومن الطريف أن المؤلف المبهور بشخصية العظيم «إيمحتب» درس لفرط إنبهاره العلوم الأثرية والكتابه الهيروغليفية واللغات القديمة وتفرغ لعدة سنوات لوضع هذا الكتاب الفريد.

ولكن الذى هز المترجم المصرى وهزنى هو أضطلاع جاميسون هارى بالدعوة إلى أن يكون

إيمحتب وبحق، رمز الطب فى العالم لا اسكليوبوس الأغرقي

يقول المؤلف:

إن هذا الرجل يستحق أسمى اجلالنا.. يجب أن ينظر إليه الأطباء في كل أنحاء العالم بإعتباره المنشئ العبقري لفن الطب، إنه الإله الرمزي لعلم الشفاء. إن إسمه يجب أن ينقش على رأس قائمة قديسينا وصورته يجب أن تكون شارة لمهنتنا.

ويقول: (من الأفضل أن يكون على رأس مهنتنا رجل من لحم ودم، شخصية شهيرة متعددة الجوانب، بدلا من شخصية غامضة المنشأ تنتسب إلى عالم الأساطير، إننا لا نعرف شيئا عن اسكلييوس وأعماله في حين أنه يتبقى من ايمحتب على الأقل تحفته المعمارية الجبارة المعروفة بالهرم المدرج بسقارة، كما يبقى شاهدا عليه كثير من التماثيل والتصاویر الجدارية تشهد بأنه قضى حياة حافلة أنفق بعضها في الخدمة العامة، وبعضها الآخر في علاج المرضى وتخفيف آلام الإنسانية).

يحكى هيرودوت أنه تلقى أى طبيب أجنبى تعليمه فى مصر كان بمثابة شهادة له حتى يقول هوميروس فى الأوديسة (فى مصر الرجال ماهرون فى الطب أكثر من أى جنس بشرى آخر).

ولد ايمحتب سنة ٣٠٠٠ ق.م فى «عنخ- تاوى» إحدى ضواحي منف. ومعنى إسمه إيمحتب: «الذى يأتى فى سلام»

وقبل اللادريين جميعا كتبت مصر، أنشودة «عازف القيثارة» التى تناولت قصر الحياة والمجهول الذى لا يدرىه أحد ومن هذه الأنشودة:

إرتد الكتان الرقيق. ضمخ رأسك بطيب الراتنج

واسعد بالمتع الحقيقية التى منحها الله

وكلمة «الحقيقية» التى منحها الله، تعنى الكثير.. تعنى المتع ذات القيمة الرفيعة.. المتع التى

تمثل فى التعطر وارتداء الكتان الرقيق

ويقول «القصيدا التى نفذت إلى حقيقة الموت.. إنه لا يستثنى أحدا مهما كان عظيما وهنا

ضربت سثلا «إيمحتب» إذن يحيا الإنسان حياته قبل أن يدركه الموت.

لا تحير نفسك

إلى أن يأتي يوم العويل عليك  
ولكن ذا «القلب الهادىء» لن يسمع عويلهم  
ولن يعيد البكاء أحدا من القبر  
إقضى يومك فى سعادة  
وأبعد القلق عن قلبك  
أنظر.. إن أحدا لا يأخذ أمواله معه  
ولا أحد يعود من حيث رحل  
إن أحدا لا يأخذ أمواله معه

هنا يدعو إلى الكرم والمشاركة وإكتساب الجميل. كما يدعو إلى التعفف عن التكثر بالمال الحرام.

\*\*\*

كنا ونحن صغار أعرار فى مدرسة القرية نجلس فى أدراج بكل منها ثقب دائرى يتسع لمحبرة صغيرة ونكتب بالريشة.  
وقد علمونا فى القرية أن نغمس الريشة فى حبر المحبرة ثم نرفعها ونهزها أو ننفضها لينزل منها قطرتان من الحبر. وبعد أن لقنا هذا تلقينا، أصبحنا نفعله كقاعدة أو كعادة من تلقاء أنفسنا.  
ولم تكن فى طراءة السن نعرف السبب ولكننا نهز الريشة مرتين كلما غمسناها فى المحبرة.  
وسارت الأيام وقرأنا تاريخنا لأنفسنا ولا أقول لقناه فى المدرسة فالذى تعلمناه فى المدرسة، تاريخ الملوك والحكام.  
أقول عندما قرأنا لأنفسنا تاريخنا فى إتماء إليه، عرفنا سر هذه القصة التى كان العالم «شيفر» أول من أشار إليها.  
إن تماثيل «ايمحتب» يحمل فيها على حجر لفافه من ورق البردى وعبارة تقول (فليسكب كل كاتب قطرات من قارورته تكريما لروحك يا ايمحتب).  
من حقك علينا وعلى الدنيا، التكريم يا أعظم الكتاب.

هذا «إيمحتب» الأديب

أما «إيمحتب» الطبيب فقد أقيمت معابد عديدة تكريما له المعبد الرئيسي منها في منف.

وهناك كما يقول المؤلف معبد آخر لإيمحتب يسمى أيضا «الإسكليبيون» كان مقاما في جزيرة فيله ولا يزال جزء كبير منه موجودا إلى اليوم بما في ذلك بعض القاعات التي ظلت لقرون كثيرة تستخدم في الأعراض العلاجية والنوم الشفائي.

وكم زار «فيله» من ملوك وفاتحين وكهنة وسياج وكم زار «فيله» أيضا من مرضى بعضهم محمول على نقالات أو يتنقل بمكازات، وأمهات يحملن أطفالهن المرضى، جميعا يقصدون بكل شوق وأمل «إيمحتب» المحبوب. الطبيب الذائع الصيت.

وقد وقف المؤلف عند المعابد التي حفلت بصور إيمحتب والنقوش عنه مثل معبد الكرنك والدير البحري ومعبد «نحوت» بمدينة هابو ومعبد «نحوت» أما معبد فيله ففيه خمس صور للعظيم «إيمحتب».

كما توجد صورة لإيمحتب على الجانب الداخلي للسور المحيط بمعبد أدفو.. وثلاث صور بمعبد دابور بالنوبة كما ظهر في منظرين بمعبد الدكه ومروى ومعبد كلابشه.

إنه إيمحتب الطبيب إين مصر التي أعطت لعلم الطب غير برديه «أدوين سميث» المشهورة، بردية إيرس EB ers التي تسجل معرفتها بالهيكل العظمى وطريقة علاج الكسور على نحو سليم ومعرفة الحقائق العلمية عن المعدة والأمعاء وشرابين الدم والقلب.

كما تدل بردية «أدوين سميث» على معرفة الأطباء المصريين بتشريح الجسم البشري وتصنيف معلوماتهم وتأسيسها على الحقائق التي شاهدها أو بمعنى آخر كما يقول المؤلف كانوا يؤسسون معرفتهم على التجربة.

وتختص بردية «وستكار Westcar» بالولادة كما تختص بردية كاهون Kahun» بالطب البيطري.

يقول المؤلف:

كانوا يعرفون على الأقل ١٥ مرضا مستقلا من أمراض البطن، و ١١ من أمراض المثانة، و ١٠ من أمراض المستقيم والشرح، و ٢٥ من أمراض العيون و ٦ من أمراض الأذن، و ١٨ من أمراض

الجلد... فهذه الأمراض كانوا يشخصونها تشخيصا سليما ويعالجونها طبقا لمبادئ محددة، ومن الممكن طبقا للظواهر التي تصنفها البردية تمييز ٢٥٠ مرضا مختلفا.

ومن الواضح أن الأطباء الذين كانوا يزاولون مهنتهم على ضفاف النيل كانوا يملكون قدرا من الروح العلمية، وقادرين على الملاحظة الأكلينيكية الدقيقة، وعلى التنسيق بين الظواهر وتفسيرها، إذ أن تصنيف الأمراض يتطلب تقدما علميا كبيرا.

وينقل المؤلف عن هيرودوت إشارته إلى ظاهرة التخصص في الطب في مصر كسمة إذ يقول:

وينقسم التطيب عندهم إلى الفروع التالية:

لكل مرض طبيب متخصص فيه لا لأكثر، وبلادهم كلها غاصة بالأطباء، بعضهم متخصص في العيون، وبعضهم في الرأس، وبعضهم في الأسنان، وبعضهم في الأمعاء، وبعضهم في الأمراض الخفية.

كما كانت الأدوية مصنفة في مجموعات خاصة منها المهدئات والمنبهات، والمنومات، ومضادات التشنج، والممدات، والقابضات، وأدوية التجميل، وطوارد البلغم، والمقويات، والمقيثات، وطوارد الريح من الأمعاء، والمطهرات، والمسهلات، وموانع النزيف، وطوارد الدود، ومدرات البول، وأدوية الحوامل، ومدرات الطمث، ومعجلات الولادة، ومدرات لبن الأم، ومرطبات البشرة (كريم) ومبيدات الجراثيم، ومضادات السموم، وما إلى ذلك.

كانت مصر تحرص على النظافة إلى حد المبالغة وكان الكهنة وهم في موضع القدوة من الشعب يطبقون نظاما صارما فلا يمكن السماح لأي شيء غير ظاهر بدخول المعبد، ولا سيما «قدس الأقداس» وكانت الطهارة الجسدية والخلقية شرطا أساسيا لصحة العبادة.

كان يتحتم على الكاهن حلق شعر جسده كل ثلاثة أيام وعليه أن يستحم بالماء البادر من الرأس إلى القدم مرتين في النهار ومرتين في الليل. كما يتحتم غسل الأيدي وتنظيف الأظافر قبل أداء المراسم الدينية. ولهذا كانت المعابد تضم بحيرة الإغتسال وحجرة للطور.

وكان المصريون القدماء يعرفون أهمية الطب الوقائي. يقول «ديودور الصقلي»:

كانت حياتهم كلها منظمة على نحو يوحى بأنها تسير طبقاً لقواعد صحية وضعها طبيب واسع المعرفة لا مجرد مشروع قوانين.

يقول المؤلف:

إن أسم «إيمحتب» يستحق أن يظل خالدًا في ذاكرة البشرية كواحد من كبار العباقرة الإنسانيين.

إنه يتلألأ كأحد النجوم الثابتة في سماء مصر الصافية.

الذي قال هذا الإنجليزي منصف ماذا نقول نحن الذين شرفنا، بعده بالإنتساب إلى مصر أم النيل وأم الهرم وأم الحضارات وأم إيمحتب..

## قصة الحضارة

مؤلف هذا الكتاب عالم نفساني معروف من علماء هذا الجيل، هو أ. م. جود

وعربه الأستاذ محمد بدران

وموضوعه قصة الحضارة القائمة في هذه الأيام وقد أبرز الكاتب أهم معالمها وشرح عيوبها وفضائلها شرحاً نزيهاً، فلم يتحيز لها ولم يظلمها.. وبين ما تتعرض له من الأخطار.. ودلنا على الطريقة التي نتقيها بها. وقد أغفل في هذه القصة ما ليس من مقومات الحضارة كتاريخ الملوك والقواد والفتوح والحروب.

ودار حوار كالسرار بينه وبين ابنته. تقول الإبنة:

- ولكن الملوك والأمراء كانت لهم أشياء عظيمة كالقصور الفخمة والملابس الجميلة، والجواهر النفيسة، والطنافس الغالية والمأكولات الشهية والعطور والخدم والعبيد.

ألم يكن هؤلاء متحضرين؟

تسأل الصغيرة كما يسأل البسطاء الذين يبهرهم البريق وإن كان ليس كل ما يلمع ذهباً.

أقول أن يفعل إنسان ما يريد ويتمتع بما يشتهي ليست بطولة لأن البطل الحقيقي هو «الكرسى».. هو ذهب المعز وسيفه وعلى رأى المؤلف هذا ما كان يفعله الرومان.. فقد كانوا يملأون بطونهم من الطعام والشراب. حتى إذا لم تعد تتسع لأكثر مما فيها تناولوا مقيتاً يساعدهم على أن يفرغوا ما فيها، ثم يبدأون الأكل والشراب من جديد؟!

ولست أظن أن هذا من الحضارة في شيء فهل تظنينه كذلك أنت؟

إن الخنازير تفعل ما كان يفعله هؤلاء الرومان وإن لم يكن في مقدورها أن تتقياً بعد أن تمتلئ بطونها بالطعام.

وتسأل الإبنة مرة أخرى:

- وكيف أميز الأشياء الجميلة من غيرها؟ فيقول والدها:
- إنها هي الأشياء التي لا تسأمين منها.. إن الأشياء الجميلة تبقى على الزمن، أى أن الناس يحبونها فى جميع العصور.
- ويعترف المؤلف أو بوجه التحديد، على بواعثها.
- إن الحضارة تقوم لأن الناس يفكرون تفكيراً جديداً، وهم لا يفكرون تفكيراً جديداً إلا إذا فكروا تفكيراً حراً.
- وتتوقف الإبتنة عند شرط التفكير الحر وقفه فيها حرية وحيرة حرية فى المناقشة وحيرة من قلة من يفكرون تفكيراً حراً، إذا كان للتفكير الحر هذا الشأن العظيم.. ولكن حيرتها لا تطول فقد جاءها الجواب.
- ذلك لأنه لا بد من وجود أشياء كثيرة قبل أن تنهياً للناس أسباب التفكير الحر. لا بد من وجود الأمن مثلاً أقول لأن الأعمال العظيمة:
- تولد فى الرخاء النفسى حتى وإن قال المال والذى يعطى الرخاء النفسى والسلام النفسى، الطمأنينة إلى عدل يسود، وحب وجود وإيمان راسخ فى الأعماق يقويها ويزكيها وقد أفلح من زكاها.
- يقول المؤلف لا بد للتفكير الحر أن يكون الانسان المفكر عنده وقت يفكر فيه.. إذا تقاسمته وتوزعته الهموم والمشاكل والأشياء الصغيرة فقد مال الميزان. ويضيف المؤلف شرطاً آخر هو أن يكون من حول المفكر قوم يتحدث إليهم.. أى أن:
- الأمن.. والفراغ.. والمجتمع لا غنى عنها للتفكير الحر ولا غنى عنها كذلك لقيام الحضارة.
- وأن يكون الإنسان خيراً حتى لا تتحول الاختراعات التى قصد بها فى البداية، الخيره إلى وسائل تدمير.
- وبعد هذا أن يكون الإنسان خيراً حتى لا تتحول الاختراعات التى قصد بها فى البداية، الخير، إلى وسائل تدمير كما حدث فى تحويل الذرة من النفع إلى الدمار.
- وقد قارن المؤلف بين الحضارات.. ورفض الفن السائد أن أعظم الدول شأنها هى التى هزمت أكثر عدد من الدول الأخرى فى ميدان القتال- وغلبتها على أمرها، وأخضعها لسلطانها.. فإن

هذه الدول الغالبة ليست أكثر الدول حضارة.. إن الوحوش تتقاتل وكذلك يتقاتل المتوحشون.. ومن أجل ذلك كان أقدر الناس على القتال أشبههم بالوحوش أو بالمتوحشين وأبعدهم عن الحضارة.

وعلى ضوء هذا المقياس أغفل في قصة الحضارة ذكر قيصر و نابليون والاسكندر، لأن هؤلاء لم يكونوا إلا رجالا نجحوا أكثر من غيرهم في قتل عدد كبير من بنى الإنسان.

وأثنى المؤلف على حضارتين هما حضارة الهند وحضارة الصين لأن الهنود والصينيين جاءوا إلى العالم بآراء جديدة دينية وأنهم حاولوا أن يتهجوا في حياتهم سبيل الخير والصلاح.. ولو أنه في حديث الحضارات خلط بين الحضارات ومع هذا فإن وقفته عند الإسلام تستحق التسجيل.. إذ يقول:

إن الإسلام أحد أديان العالم الكبرى.. والإسلام الآن منتشر في أجزاء واسعة من بلاد آسيا وأفريقية، ويدين به عدد كبير من الناس في أوروبا ولا تخلو منه أمريكا.

ولكن الناس لم يكن من السهل عليهم أن يتبعوا تعاليم المسيح الذى يقول إن الإنسان يجب أن يحسن حتى إلى أعدائه وتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم، التى تحض على الأخلاق الكريمة ويقول إن الناس متساوون أمام الله.

على أنه يأمل أن يحاول الناس.

وبعد الإسلام أعرض بعض ما كتبه عن مصر: يقول «جود»

المصريون الأولون أقدم الأمم المعروفة فى التاريخ إننا نعرف الكثير عن المصريين القدماء والسبب فى ذلك أنهم تركوا لنا كثيرا من الأشياء الجميلة التى صنعوها والمباني التى شيدها والأوراق التى كتبوها ولم يكتفوا بهذا بل إنهم تركوا لنا جثثهم بعد أن حفظوها من الفناء بإضافة مواد تمنعها من التعفن، ولذلك نعرف عن المصريين الأقدمين أكثر مما نعرف عن أمة أخرى قديمة.. وفى كل عام يكشف الباحثون عن أشياء جديدة مما تركوه.. وكانت للمصريين حضارة عظيمة من بعض الوجوه- لم يقل شيئا عن البعض الآخر من وجهة نظره-

وعن الكتابة يقول (يعتقد بعض العلماء أن المصريين هم الذين اخترعوا الكتابة وأن الكتابة انتشرت من مصر إلى البلاد الأخرى حتى وصلت إلى بلاد اليونان.

وصنع المصريون، الورق من نبات البردى ولا تزال تلك الكتابة باقية إلى اليوم. ويقول: (قد أخذ اليونان عن المصريين كثيرا من علومهم وقوانينهم ومن بلاد اليونان انتقلت إلى روما ومنها إلى سائر أنحاء العالم).

ويقول: غزا الرومان بلاد اليونان وغزا البرابرة بلاد الرومان ونشأت من سلالتهم تلك الشعوب الأوربية والأمريكية التي ساهمت في الحضارة بنصيب كبير.

وعنده أن الرومان ليس لهم حضارة وانما هم امتداد للحضارة اليونانية على الرغم من أنهم غزوها ولكنهم كانوا جهلاء فعلم اليونان سادتهم، الكثير. ومع هذا لم يستفيدوا إلا قليلا يقول «جود» (إن الرومان وإن أخذوا كثيرا من الأفكار اليونانية إلا أنهم لم يفلحوا إلا في إفساد معظم ما فيها من خير)

وعن مصر يقول جود إنها كتبت ورسمت وصورت وآثارها منتشرة في متاحف أوروبا وأمريكا فضلا عن الكثير الذي يوجد منها في موطنها الأصلي. وقد بلغت هذه التحف من الكثرة حدا جعل كثيرا من الدول الأوربية والأمريكية تخصص أقساما من متاحفها تحفظ فيها تلك الآثار المصرية الجميلة وهي تعزز بها وتعدها أئمن ما ملكت.

وتكلم «جود» عن براعة الايطاليين في التصوير وعن الهولنديين في هذا المجال شهد بهذه البراعة ميكل انجلو ورفائيل وليوناردو دافنشى في ايطاليا.

كما يشهد بها فان ديك ورمبرانت وفرمير في هولندا.

كما تكلم «جود» عن الموسيقى الألمانية ويرى أن أعظم موسيقى العالم هم الألمان..

والألمان بدورهم يعدون «باخ» (١٦٨٥-١٧٥٠) وموزار (١٧٥٦-١٧٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠-١٨٢٧) من أعظم رجال العالم.

كما أنصف «جود» العرب الذين كان لهم فضل كبير على الحضارة القائمة في هذه الأيام ويرى نهضتهم في القرن السابع عجيبة من عدة وجوه وكان لها تأثير عظيم في معظم بلاد آسيا وأفريقيا وفي جزء غير قليل من بلاد أوروبا.

وكان ذلك على أثر ظهور الدين الإسلامي وانتشاره في أجزاء العالم.

لقد قضى هذا الدين على الحروب التي كانت تقوم بين القبائل المتعادية في بلاد العرب وألف منها كلها دولة واحدة قوية، نشرت دينها وآدابها في أنحاء العالم.

إن العرب هم الذين نقلوا علوم اليونان والرومان إلى العالم فقد ترجموا هذه العلوم إلى لغتهم، وأضافوا إليها كثيرا مما وضعوه هم أنفسهم ونقل الأوربيون عنهم هذه العلوم وأهمها كلها علم الجبر الذي اخترعه العرب أنفسهم، وعلم الكيمياء الذي زادوا عليه كثيرا، وعلم الطب الذي تقدم على أيديهم تقدما عظيما وابن سينا من أشهر هؤلاء الأطباء ونبع العرب في الفنون الجميلة والتصوير. ويلاحظ أن الصور التي تركها العرب تتألف كلها من أشكال هندسية مختلفة وأنها خالية من صور الإنسان.. وكذلك لم يصنع العرب تماثيل ولكن ما تركوه من الصور جميل حقا.. ولا يزال نشأته في المساجد التي أقاموها في العصور المختلفة.

وهي كلمة إنصاف نسجلها له.

والحقيقة أنه في كتابه وقف عند أصحاب العطاء من الأمم المختلفة وهذه سمة العلماء.

والفصل الرابع من هذا الكتاب يقف عند الطريقة التي غيرت بها الكشوف العلمية أساليب الحياة.

يكفى أن نعرف أنه قبل تقدم الطب كان الطفل من أربعمائة عام يموت في سن الطفولة وكان يحدث في لندن من مائة عام على الأكثر أن يموت ثلاثة أطفال من كل خمسة قبل أن يصل إلى سن الخامسة.. وأن يموت كل أطفال الفقراء الذين كانوا يربون في الملاجئ إلا القليل منهم.. بل إن كثيرين من أبناء الأسر المالكة وهم الذين يظن الناس أنهم يعني بهم أشد العناية، كانوا يموتون عادة وهم أطفال.

وإلى نعمة العلم يعود الفضل في تمتع إنسان اليوم بالصحة فقد أثبت «باستير أن كثيرا من الأمراض تنشأ من كائنات حية صغيرة جدا تدعى الجراثيم تسكن الأجسام الحية وتعيش عليها وتسممها..

ولهذا كان كشف الجراثيم وعملها من أهم الكشوف العلمية فقد عرف منه الأطباء أن من أحسن الوسائل لعلاج مرض ما أن نعرف طبيعة الجراثيم التي سببت هذا المرض وأن تقتل هذه الجراثيم.

ولقد كانت عناية الأطباء بنظافة كل شيء تمسه أيديهم من أهم أسباب إطالة عمر الإنسان في  
المائتي سنة الأخيرة

إن المجارى التى تتخلص بها البيوت من الأذوار على اختلاف أنواعها أمر جديد فى الحضارة  
البشرية.

لقد كانت مدن العصور الوسطى كريهة الرائحة لأنها لم تكن فيها وسائل لتقل مخلفات  
المنازل.

وقد كشف العلم شيئاً لا يقل أثره عن آثار كشف الجراثيم لأنه خفف من آلام المرضى وذلك  
هو كشف التخدير.. البنج

والمؤلف يرى أنه لا يوجد بين الكشوف العلمية كلها كشف كان له بمفرده أثر فى سعادة  
الناس مثل ما كان لهذا الكشف ذلك لأنه قلل من آلامهم وأزال خوفهم من الألم.

كان الجراحون يستخدمون كل ما يستطيعون استخدامه لتخفيف آلام المريض فكانوا يسكرون  
الجنود بالخمور، وكان المرضى يضربون على رؤوسهم ليفقدوا شعورهم، ولكن العمليات المعقدة  
التي يجريها الأطباء فى هذه الأيام والتي تستلزم تقطيع أجزاء من جسم الإنسان ووصلتها بعدئذ،  
كانت مستحيلة ولذلك كان يموت عدد كبير ممن تنقذ حياتهم فى هذه الأيام بعمليات جراحية  
تجرى لهم فى الوقت المناسب..

المجهورون بأوروبا وأمريكا اليوم هل يصدقون مؤلف كتاب قصة الحضارة حين يعرض فى ثنايا  
القصة، وهو أوربي، ما كان يجري فى البلاد الأوروبية التى تسمى دول الحضارات القديمة،  
«العالم الثالث» فى غرور محدث الحضارة.. هل نصدق أن النساء الأوربيات كن فى القرن الثامن  
عشر أى منذ قرنين فقط، يعلقن فى وسطهن على الجنبين سلة كبيرة تمنعهن من الجلوس! وكانت  
النساء الإنجليزيات فى أواخر القرن الخامس عشر - أى فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية -  
يلبسن حول رقابهن طوقاً سميكاً من النسيج المتفتخ يمنعهن من أن يشربن الحساء! وكان النساء  
فى فرنسا فى أيام لويس الرابع عشر يتبعن عادة تشويه الأقدام؟!!

وكانت النساء الأوربيات فى القرن الثامن عشر يلبسن ملابس من الجلد والصوف الملبد  
يتعذر عليهم خلعها ولا يستطيعن غسلها فتظل على أجسامهن حتى تبلى وتمزق!!

يقول المؤلف: (كانت النساء الأوربيات جميعا حتى الطبقات الراقية قدرات كriebهات الرائحة وكن بسبب هذه القذارة يمتن بكثرة فى سن مبكره).

ليتنا نعرف تاريخنا لنقارن هذا بغندرة المرأة المصرية منذ آلاف السنين والمرأة فى الحضارة الاسلامية فى ظل التطهر والطيب وكتاب خالد يحترم الإنسان: عقله وروحه وجسمه.. الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ليتنا نسترد ثقتنا بأنفسنا.

ودخلت أوروبا فى عصر الآلات التى استخدمت فى صنع حاجيات الإنسان. اخترع جورج استيفنس القطار وكشف عالم المجليزى شهير يدعى فراداي Faraday (1791-1867) الطريقة التى يمكن بها، إطلاق الكهرباء المخزونة فى المادة وصنع فراداي شرارة كهربائية قدر لها بعد وقت طويل أن تضىء العالم وتبع هذا صنع البطاريات ثم صنعت بعد قليل المحولات الكهربائية.

وفى سنة 1945 استطاع العلماء أن يحطموا الذرة وكان من أثر المخترعات المختلفة: القطارات والسيارات والسفن البخارية والطائرات أن أصبح العالم مكانا واحدا وأصبح فى مقدور الناس أن ينتقلوا بسرعة عظيمة حول الأرض حتى لا يكاد يوجد على سطحها الآن مكان غير معروف.

على أن هناك شيئا أهم من هذه الكشوف نفسها، وهو أن الناس فى أنحاء العالم قد أخذوا يتعارفون ويتفاهمون ويتقابلون وينشأ بينهم ما نسميه علاقات اجتماعية واقتصادية ازدهرت الصناعة والتجارة مما أوجب بل فرض عقد الصلوات قبل الصفقات ونشأت الحاجة إلى الكتابة والمراسلة وعظمت هذه الحاجة فنشأ اتحاد البريد الدولى.

عجيب أمر الحضارة.. لقد جلبت على أهلها انقضااض النهج من التلال على شعوبها فى المدن والسهول.. وهو ما يسميه الدكتور جمال حمدان الغزوات الرعوية وفى القرن الثالث عشر

أغار المغول القادمون من أواسط آسيا على بلاد الإسلام وعلى الجزء الأكبر من بلاد أوروبا.

ودمرت فى الغارات، حضارات ودخلت الحضارة فى عصر الطباعة ولكن أهم من استخدام الحروف فى الطباعة صنع الورق وهنا تألق مصر الرائدة فقد صنعت الورق وكتبت على البردى واسم الورق مشتق من البردى Paper فى الإنجليزية و Papier فى الفرنسية ولما كثر الورق أصبح فى وسع الإنسان أن يطبع ما يريد وحلت الكتب محل المخطوطات التى كانت تكتب باليد فى العصور الوسطى وتستأديه جهودا شاقة.

والكتب أهم أداة في نقل الحضارة وحيث لا توجد الكتب لا توجد السجلات ولا توجد الآداب، ولا يستطيع الجيل الحاضر أن يورث الجيل القادم علومه وآدابه.

وإذا كانت نسبة (الأميه) متفاوتة في البلاد المختلفة فالمؤلف يقول إن معظم أهل إنجلترا من ستين سنة لا يعرفون القراءة ولم يسن قانون يلزم الأطفال بتعلم القراءة إلا في عام ١٨٨٠.

وحين اخترعت الإذاعة اللاسلكية، استطاع بفضلها الناس على اختلاف ظروفهم أن يستمعوا إلى جميع ما يحدث في العالم من حوادث هامة وأن يكونوا على اتصال بما في العالم من معارف وآراء.

والعلم سواء كان جاهزا أو بالتعلم والتحصيل، قوة ألوان التفكير والتعبير فلا يتجمد عند تفكير واحد أو عقل واحد.

وكم بين التسامح والتعنت من فروق

والحضارة تقترن بالأمن والنظام وهما شرطان أساسيان في قيام الحضارة. فبغير الأمن يتعذر وجود هذا النشاط الراقى الذى تقوم عليه الحضارة وبغيره لا يستطيع المخترع أن يخترع ولا يستطيع العالم أن يكشف ولا يستطيع الفنان أن يبدع.

والحضارة تحتاج الصحة ومع هذا لا نستطيع أن نقول ان الصحة هي الحضارة فكثير من المتوحشين أصحاب الأجسام ولكن الإنسان إذا لم يكن صحيح الجسم لم يستطع ان يعمل عملا نافعا أو يتمتع بطيبات الحياة خاصة بعد أن صار العالم وحدة..

إن من يتأمل يوما من حياته، يعرف أن طعامه يأتيه من جميع أنحاء العالم فالأشياء التى ابتاعها من بدال أو فاكهى تأتى من أطراف الأرض فمنها تفاح أمريكا وبن البرازيل وشاي الهند والصين.

ومن الطريف قول المؤلف إنه لم يكن فى وسع ملك من الملوك الأقدمين أن يبتاع بماله الكثير ما تشتريه سيدة متوسطة الثروة فى هذه الأيام من حانوت البدال.

لقد كانت أمم الأرض إلى عهد قريب تعيش فى صناديق مقفلة لا يتصل بعضها ببعض إلا إذا أغارت إحداها على الأخرى.. وقد ظلت هذه الصناديق زمنا طويلا مقفلة لم تفتح قط ولكن الأمم فى هذه الأيام دائبة على الخروج منها والدخول فيها.. وقد بلغ من كثرة هذا الدخول والخروج أن أخذ بعض جوانبها يتحطم وأخذ العالم يبدو وكأنه صندوق واحد ضخم.

وعلى الرغم من أن العالم أصبح، وحدة فإن الحواجز لاتزال تفصل الأمم بعضها عن بعض وهي حواجز أقامتها الحكومات.. والحروب،.. ففي نصف قرن قامت في أوروبا حربان عالميتان وكانت أسبابها كثيرة مختلفة ولكن أهمها كلها الخوف والكبرياء.

واليوم أوروبا أشبه بمعسكر واحد ضخم أو مستودع بارود على الرغم من العلم والتكنولوجيا والآلات المختلفة والصناعة والتجارة والترفيه.

وهنا ندرك قيمة الدين بإنسانياته

وإذا ظلت الأمم سائرة في هذا الطريق فلن يحتاج الأمر إلى أكثر من شرارة أخرى لإيقاد نار الحرب من جديد وستكون هذه بفضل المخترعات العلمية الحديثة حربا مخربة تحترق بها حضارتنا ولا يبقى لها وجود.

زار ملك الأفغان، إنجلترا وأعدوا له برنامجا للزيارة وكان أهم ما فيه زيارة مصانع الدبابات والطائرات وقاذفات القنابل والغواصات.. وخلا البرنامج من زيارة شاعر أو مصور أو موسيقى أو مخترع عظيم أو فيلسوف.

ولكنني متفائلة فحين كنت في باريس منذ عدة أعوام حرصت على زيارة بيت الشاعر فيكتور هوجو. وحين ذهبت إلى البيت الذي يقع على مقربة من قصر الملك، وجدت طابورا طويلا يريد كل من فيه حجز تذكرة لزيارة بيت الشاعر ولم أجد طابورا لزيارة قصر الملك.

إننا كما يقول المؤلف ننفق معظم وقتنا وجهودنا في صنع آلات أكثر مما لدينا وأحسن منها ولكن كل ما تفعله الآلات الحديثة هي أن توفر لنا وقتا جديدا وتمدنا بجهود جديدة ولكننا لا نستفيد من هذا الوقت ومن تلك الجهود فائدة تذكر.

إن الآلات نفسها والقوى التي أمدتنا بها ليست هي الحضارة بل عون على الحضارة.

إن الحضارة في صنع الأشياء الجميلة وفي حرية التفكير وفي الحياة الصالحة وفي توزيع العدالة بالتساوي بين الناس.

أقول ترى هل تتحقق هذه الآمال؟... لعل